الصراعات البشرية

صراع الذات والآخر

"دراسة فلسفية أنثروبولوجية"

إبراهيم أحمد الإعيسر

دار الرحمة للنشر والتوزيع

الصراعات البشرية

صراع الذات والآخر

دراسة فلسفية أنثروبولوجية

اسم الكتاب	:	**الصراعات البشرية صراع الذات والآخر**
النوع	:	**كتاب فلسفي**
المؤلف	:	**إبراهيم أحمد الإعسير**
تصميم الغلاف	:	**سها عبد النبي**
الإخراج الفني	:	**أميرة محمود**
إصدار	:	2024
رقم الإيداع	:	16673\2024
الترقيم الدولي	:	978-977-8997-96-5

جمهورية مصر العربية – القاهرة

مدير النشر: رحمة خالد

01227688519

Rhmhk5531@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر ®

وأي اقتباس، أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة كتابيه، يُعرِّض صاحبه للمسائلة القانونية، أما الحقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

الصراعات البشرية

صراع الذات والآخر

دراسة فلسفية أنثروبولوجية

إبراهيم أحمد الإعسير

إهداء

إلى أي امرأة أوروبية جميلة، جملت العالم، باستضافة لاجئي في منزلها أو أخلت له شقتها الخاصة، أو اقتسمت له راتبها الشهري، أو قدمت له ساندويتش فلافل في لحظة جوع، أو كافحت معه في محاكم الاستئناف، أو ذهبت معه للسوق لتشتري له ملابس شتوية، أو ارتسمت له ابتسامة لطيفة إن لم تضع في جيب سترته عشرة يورو ثمن وجبة إفطار.

مقدمة

مقدمة المؤلف: إبراهيم أحمد الإعيسر

كاتب وناقد وصحفي متعاون لدى الصحافة الثقافية، حائز على شهادة الإيجاز الصحفي من معهد الجزيرة للإعلام، ومحرر عام لمجلة (البوهيمية) الثقافية. كتب العديد من المقالات النقدية والأوراق البحثية في العديد من الصحف والمجلات المحلية والعربية، كما عمل محكم ناقد في بعض الجوائز الأدبية وفي لجان إجازة النصوص لبعض دور النشر العربية. صدرت له رواية (جاموكا)، من دار ببلومانيا للنشر والتوزيع ٢٠٢١م، كما صدر له مؤخراً في العام ٢٠٢٤م من دار الرحمة للنشر والتوزيع كتاب (إبستميولوجيا الجنون والفنون) مجموعة مقالات نقدية وفكرية في الجنون والفلسفة والسينما والأدب والفن التشكيلي والثقافة والسياسة، وكتاب (الصراعات البشرية صراع الذات والآخر) دراسة فلسفية أنثروبولوجية، الذي هو بين أيديكم الآن.

من خلال تجربتي في الكتابة الإبداعية والنقدية، ومعرفتي بالأوساط الثقافية في السودان والوطن العربي، أدركت أن كتابة المقدمات للكتب تحكمها معايير الرأسمالية الرمزية، فحينا تطلب كتابة مقدمة لأحدى كتبك من أحد المثقفين، فأنت تدرج نفسك تحت المعايير النرجسية الاتية: من أنت؟ هل أنت من كتاب

الصف الأول؟ ما هي عدد الجوائز التي حققتها؟ عدد الكتب التي ألفتها؟ الأوراق البحثية والعلمية التي كتبتها؟ الصحف والمجلات والمواقع التي كتبت بها؟ دور النشر التي نشرت بها؟ المنتديات والمراكز الثقافية التي أقمت بها ندوات؟ العضويات الأدبية والثقافية التي تنتمي لها؟ الحزب الذي تنتمي له ومكانتك الهرمية بينه؟ عمرك (نعم عمرك) إذا فكرنا أنه من يحدد مقدراتك المعرفية والفكرية كمعيار نمطي عام؟ مؤهلك الأكاديمي الجامعي؟ أصدقائك من النخبة؟ المدينة التي تقيم بها؟ نعم المدينة التي تقيم بها (هذا أمر مهم جداً أو معيار مركزي للتقييم أو الانتخاب الإبداعي) فالمبدعين والمفكرين والنشطاء الثقافيين والسياسيين الذين يقيمون في مدن مثل برلين وباريس ولندن وجنيف وأوسلو والقاهرة كـ(مدينة تحيل نفسها لحضارة المدن الأوروبية) يكون لهم تقيم أكبر من ما هم يعيشون في مدن وقرى أقل حضارة من مدن العالم الثالث في معايير الأوساط والمؤسسات الثقافية ! يمكن مراجعة مقالي (تنميط المثقف السوداني) في كتابي (إبستيمولوجيا الجنون والفنون) المنشور عبر دار الرحمة للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م

هذه كلها أشياء تمنحك المعيار لكتابة مقدمة كتابك؛ فإن كنت من كتاب الصف الأول أو كاتب صاحب رأسمال رمزي كبير، تقيم في لندن ولك أصدقاء من النخبة أو نخبة النخبة وإلى آخره أنت مؤهل لأن يكتب مقدمة كتابك كُتاب موازيين من جانب رأسمالك الرمزي! ببساطة لا يمكن أن تكون كاتب مبتدي ويكتب مقدمة كتابك الأول (وول سوينكا) أو (نعوم تشومسكي) أو (إدوارد سعيد) مثلاً، ذلك مهما كانت قوة ذلك الكتاب! المهم هو من (من أنت!؟).

إضافة إلى كل ذلك، المزاجية والذائقة الفنية ودرجة الفكر والمعرفة والأيديولوجيا لكاتب المقدمة قد تتناقض مع المحتوى الذي كتبته أنت، وهذا ما يفرض عليك أن تبحث عن كاتب يتناغم معك فكرياً !

لكل ذلك – وكإنسان (بوهيمي) فكرياً وحياتياً – أنا لا أفضل أن يكتب لي أحد مقدمات لمؤلفاتي، كما أنني بكل وضوح لا أفضل النشر عبر الدور السودانية والجنوبسودانية، أو أنني أتناقض معها معيارياً، فهي تحتكمها ذات المعايير التي تفضلت بها حول كتابة المقدمات، أي لا تفضل مثل هذه الجراءة في الكتابة أو ما هو مكتوب أعلاه من مقدمة لهذا الكتاب، لها قاموسها من

المصطلحات التي يستوجب عليك أن توظفها فيما تكتب، ولك أسلوب ودبلوماسية في الطرح أو حدود من الجراءة في الكتابة وإلى آخره !

كما أن الدور السودانية تتعاون مع النخبة التي تنتخبها لها الجوائز، والملفات الثقافية بالصحف اليومية، والمؤسسات الثقافية و(الشلليات) التي تطبل لبعضها البعض، أو من لهم سيرة ذاتية في النضال الفكري السياسي، فالدور السودانية مثلاً لا تنشر مجاناً لخلاف ذلك، فهي لا تتعامل إلا مع من له رأسمال رمزي أو من له تصنيف من كُتاب الصف الأول؛ وتلك واحدة من أوجه التفكير التجاري والرأسمالية الرمزية عند تلك الدور، فهي تمثل الزبون الدائم للنخبة التي خرجتها لها كذلك الانتماءات الحزبية السياسية والجامعات مثل جامعة الخرطوم وجوبا والنيلين والسودان، ومن أكملوا دراساتهم في أوروبا وأمريكا وكندا واستراليا، ولهم نشاطاتهم السياسية التي يمارسونها في دول المنفى. ليمثلوا رأسمالها الرمزي أو يمنحوها من السمعة التي تضيف لها تجارياً من حيث عدد الزبون الذي يشتري كتبها !

في الحقيقة أنا من مناصري الإيمان بالتفكير الحر، وهنا أنا أقصد بالتفكير الحر (مطلق الحرية الفكرية) وليس أن نكتب بشكل لا أخلاقي أو ما هو يدعو لإساءة الآخر أو لإنتاج أيديولوجيا تخلق الفوضى والخراب في العالم، بل

التفكير عكس القوالب الثابتة للكتابة الإبداعية والنقدية والعلمية والفلسفية وإلى آخره، أي لا يهمني أن تكتب رواية تجريبية بإحداثيات تناقض القديم المستهلك أو المعايير التي يستهلكها المثقفين في مفهوم أدوات كتابة الرواية كنموذج، بل لا يهمني حتى أن تفكر بسريالية سياسية (أن تسقط فشل بناء الدولة الحديثة على الحيوانات مثلاً) المهم عندي أن تصل لقارئ واحد وإن كان مجنوناً تستطيع أن تقنعه بأطروحتك.

لذلك أنت ككاتب لا تقيد حريتك في التفكير والابداع انطلاقاً من المعايير الجامدة التي تصدرها المؤسسات الثقافية ودور النشر وما تصدره الجوائز من معايير تستند عليها تلك المؤسسات وتلك الدور، لا تنتظر أحد من الأشخاص النخبويين أو لمن لهم رأسمال رمزي كبير أن يحددوا جودتك من التفكير والابداع، بل أضع معاييرك وأساليبك الخاصة في ممارسة أي عمل فكري أو فني تمارسه، أي لطالما تمتلك أدوات اللغة والمعرفة والعلم ولطالما كل فكرة هي (تنظير) في الحياة، في تاريخها وحاضرها ومستقبلها؛ لماذا تدع أحد يصادر (تنظيرك) أنت الآخر!؟.

شخصياً أر أن كاتب الرواية مثلاً أقل جودة فكرية ومعرفية من كاتب المقال (الفيلسوف، الناقد، المفكر، الصحفي) ؛ فالجميع يمكن أن يكون بداخلهم

مجموعة من الافكار والمعرفة لكتابة رواية، لكن كاتب المقال المتخصص في السياسة مثلاً والذي يكتب بصورة اسبوعية راتبة هو من المؤكد يحتاج إلى ذخيرة معرفية كبيرة ومقدرة عالية من التفكير بشكل مختلف من كتابة إلى أخرى، أي باختصار ليس كل روائي (مثقف) في معنى (المثقف) الذي يمتلك المعلومة و(المثقف) الملتزم والحضاري والاخلاقي في سلوكه اليومي!.

ولعل هذا ما يعيدني إلى مقال كتبته مؤخراً (المثقف المصري الشاب وأسطورة الوهم) ولما له من علاقة بتفكيك (المثقف) وانطباع حول دور النشر المصرية، التي برغم ما بها من مشاكل – قد تبدو متناقضة لطرحنا – أو لا توجد للكثير منها لجان تحكيم أو معايير تحكمها في النشر، إلا أنني أفضلها كدور لا تقييد من حرية التفكير ولا تركز مشروعها على الفئات (النخبوية) من المبدعين: أي حينا أدارس المفكرة الإبداعية للشاب المصري في الألفية الميلادية الثالثة، لا بد أن أسترجع مشروع المؤسسة الثقافية ودور النشر المصرية في ظل العولمة وما تصدره من مثقفين من جيل اليوم، فالمعلوم بالنسبة لي أن ليس كل من يكتب (الرواية والقصة القصيرة والشعر والخاطرة) بالتحديد هو (مثقف) في كل معاني تعريف (المثقف) ، (المثقف) في المعنى الكلاسيكي العام (من يمتلك المعلومة) و(المثقف) كما هو في تعريف انطونيو غرامشي وإدوارد سعيد ونعوم تشومسكي وميشال فوكو..الخ ، فأجناس الكتابة الإبداعية (الرواية والقصة القصيرة

والشعر الخاطرة) لا يمكن أن تبني عند الإنسان الرؤية وأسس التفكير النقدي والعلمي، لأنها تفهم في العقل الجمعي – العربي بالتحديد – أنها مواد إبداعية (للتسلية) و(تحريك للأحاسيس والانفعالات الإنسانية العاطفية) لذلك هي تُقرأ بسذاجة وغباء من هذا المبدأ، دون النظر إليها بأنها يمكن أن تكون أداة للتفكير الفلسفي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والكوني والعلمي والنفسي، أي كنموذج (أن نفكر علمياً عبر الرواية) كما فكر أرثر كونان علمياً وديستوفسكي سيكولوجياً وتشينوا أتشيبي سياسياً، لكل ذلك تلك الأجناس من الكتابة الإبداعية لا يمكن أن تنتج (مثقف) أو (مفكر) أو (عالم) ، بل لا يمكن أن تنتج حتى كاتب روائي أو شاعر أو قاص بذات القدر من الذين أبدعوا في كتابة تلك الأجناس من الكتابة الإبداعية، لأن الكتابة عمل يحتاج لذخيرة معرفية متعددة المجالات (فكل فن إن لم يرتبط بعلوم أخرى لن يكون فن .. بل سوف يصبح شيء آخر يحاول الاقتراب من الفن) ، فالواضح أن دور النشر المصرية أو دعنا نقول الغالبية من تلك الدور ليست لها مشروع ثقافي ولا لجان نقدية، ولا معايير إبداعية، بل الناشر نفسه ربما يكون هو إنسان غير (مثقف) ولا علاقة له بالثقافة ولم يقرأ في حياته أكمل رواية أو قصة قصيرة دعك من الكتب الفكرية الكبيرة ذات التفكير الفلسفي والعلمي المعقد، ولا يملك من التفكير النقدي الذي يؤهله ليكون ناشر، فأنا أقترح على المؤسسات

الثقافية أو وزارات الثقافة في كل أنحاء العالم أن تنتخب (الناشرين) وفق معايير معرفية صارمة إن لم أقول أن يكون (الناشر) صاحب أدوات نقدية ويمتلك معرفة شاملة بكل أنواع العلوم والفنون، وإلا كل من يخالف تلك المعايير بتأسيس دور نشر هو بذلك يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون وفق المادة المحددة من جرائم الفكر – وهذه ليست دعوة لفرض بوليس للفكر وتقييد لحرية الفكر كما يفهم البعض، ذلك إذا اقترحنا أن يكون هناك اتحاد ناشرين (مستقل) لا يتبع لأي وزارة أو هيئة هو من ينتخب اللجان التي تتبع لوزارة الثقافة لانتخاب الناشرين وفق المعايير التي يضعها اتحاد الكُتاب، أي المقصود بها (معيار اللغة والفكرة بشكل غير مبتذل والأسلوب المتفرد في الطرح أو السرد) وغيرها من المعايير التي تؤسس لمنتوج فكري وإبداعي بجودة عالية دون التقييد من حرية التفكير – فالملاحظ هو أن تلك الدور سنوياً تمارس نوع من أنواع التجهيل – المدعوم معنوياً وفكرياً من مؤسسة الدولة الثقافية – في تصديرها للوهم إن لم نقل في تصديرها لكتب رديئة من كتب الخواطر ورواية الفانتازيا ووصفات طبخ الطعام، أرض زيكولا ونظرية الفستق .. وهنا لا أقلل بالتحديد من الجودة الفنية لتلك الأعمال (أنها لا ترتقي لمستوى الفن) بقدر ما أقلل من عقلية المتلقي الذي خلق من تلك الأعمال أسطورة أدبية وعلمية وهو

جاهل بفيلسوف مثل أنيس منصور ومثقف ومفكر مثل لويس عوض الذي ركز فكره على الدور النقدي للمثقف!

فالذي يقرأ إلى أعمدة أو نخبة الأدب والفكر في مصر من أمثال المفكر والفيلسوف العظيم دكتور عبد الوهاب المسيري وطه حسين ونجيب محفوظ وجابر عصفور وحجاج أدول ونوال السعداوي ومحمد عمارة وتوفيق الحكيم..الخ ويقرأ لجيل اليوم من الكتاب الشباب (جيل الكيبورد) الذي أنتجته دور النشر (الدكاكنية) التي صدرت له (أسطورة الوهم) بأنه انتصر لنفسه وللعالم عبر كتابة رديئة – لا يرتقي ورقها إلا للفيف سيجارة حشيش – أو لم تجد أي نوع من أنواع التقييم الفني والمعرفي، يستطيع أن يعرف حجم المفارقات ما بين استسهال عملية الكتابة والتفكير عبر الكتابة عند جيل اليوم وصعوبتها عند الأجيال السابقة، التي لم يكن عندها مشروع الكتابة هو مشروع (**Show**) أو بحث عن رأسمال رمزي، بل هو مشروع وعي واستنارة وتغيير مفاهيمي ونضال وثورة ناعمة تُخاض بسلاح القلم.

يمكنني أن أقول بكل صراحة أن (الهيئة المصرية العامة للكتاب) هي من بين المؤسسات القليلة التي لها مشروع ثقافي جاد، وهي هيئة حكومية تتبع لوزارة الثقافة والإعلام وتضم كل من دار الكتب والوثائق القومية ودار التأليف

والنشر، تأسست في العام ١٩٧١م من قبل رئاسة الجمهورية المصرية العربية، ذلك من حيث ترجمتها لعناوين مهمة من الإنتاج المعرفي للحضارة الغربية، واصداراتها العربية المتنوعة في الفكر والأدب والفلسفة والثقافة والتراث والعلوم.

ولتأكيد جدية الهيئة في مشروعها الثقافي، أنها اتبعت خطة صارمة للنشر، من ضمنها تخصيص لجان تقوم بفحص الأعمال المقدمة بصورة حيادية لتقرير مدى صلاحية الكتب للنشر، وتقوم كل لجنة بفحص الإبداعات المقدمة إليها، كل من خلال تخصيصه، وهذه اللجان تحت رئاسة رئيس الهيئة.

لكل ذلك – وما لا يتناقض في الطرح (هناك على العكس تماماً شباب مبدعين لكن المؤسسات والنخب الثقافية التي تجلس في مواقع الانتخاب هي من تعيق تقدمهم) – رسالتي إلى الشباب السوداني بالتحديد المنشغل بأمر الكتابة هي:

لا تنتظروا جوائز مثل الصندوق العربي للثقافة والفنون ونيرفانا والشارقة وكتارا ونجيب محفوظ والطيب صالح (زين/ مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي) وغيرها من ما يطلقون عليها جوائز مرموقة، أن تمنحكم الاحتراف الفني أو رأس المال الرمزي، لا تنتظروا من ما يسموهم بكُتاب الصف الأول أن يمنحوكم الاحتراف كذلك بمجرد أن أدخلوكم في دوائرهم أو (شلل‌ياتهم)

الثقافية أو قدموكم في الملفات الثقافية بالمواقع والصحف اليومية أو طلعوا من نرجسيتهم وأثنوا على البعض من كتاباتكم التي تتماشى مع أدواتهم الفنية والمعرفية والفكرية، لا تنتظروا كذلك المؤسسات الثقافية التي تنتخب مبدعيها من تلك الجوائز المذكورة ذات الأيديولوجيا والمعايير التي تتعارض مع أفكاركم وأساليبكم الكتابية، بل لا تنتظروا حتى دور النشر أن تجيز أعمالكم أو تنشرها بالمجان (فهي تريدكم أن تكتبوا وتكونوا بمفكرة ورمزية منصور خالد أو أبو القاسم حاج حمد أو محمد سعيد القدال أو النور حمد أو محمد جلال هاشم أو فرانسيس دينق أو الباقر عفيف أو أبكر آدم إسماعيل..الخ) هذه النخبة التي فشلت فكرياً في أشياء ونجحت في أشياء أخرى وصدروها لكم بأسطورة لا يمكن أن يأتي الزمان بمثلها، فأصنعوا مؤسساتكم وأفكاركم وأساليبكم الخاصة بنفسكم، أصنعوا ساحاتكم الثقافية التي لا تحدها معايير مجذوب عيدروس وعز الدين ميرغني وهاشم ميرغني وغيرهم من الذين يجلسون في مواقع (الانتخاب) لتكون جزء منها، أصنعوا حتى (مقاهيكم الخاصة) و(لغتكم الخاصة) في الطرح والنقاش، تمردوا على الصورة النمطية الراسخة عند المثقفين الذين تعرفهم الساحة الثقافية التي صنعوها وصنعتهم هي بالمقابل، تمردوا على معايير النقد الجامدة وجربوا ما هو حديث ومبتكر و(مجنون) من مخيلتكم الخاصة، وإن وصل بكم الأمر أن تطبعوا كتبكم وتكبتوا

عليها طباعة (اللادار) للنشر والتوزيع! فالقاهرة مليئة بالمطابع (في كل ذقاق مطبعة) بعيداً عن تلك المعايير الكلاسيكية التي تحد من إبداعكم والدور (الدكاكنية) التي تتاجر بفنكم وفكركم كأي سلعة غذائية تباع في (دكان) آخر الحلة، ذلك لطالما لكم القناعة التامة بأدواتكم الإبداعية واللغوية ولكم رسالتكم النبيلة في خدمة الوعي والاستنارة. ولا يوهموكم بمقولة (أكتب لذاتك) لا شيء أسمه (الكتابة للذات) هذا وهم كبير وفشل في الوصول لخلق علاقة مع القارئ!

وأعلموا جيداً، أن الوسط الثقافي السوداني، وسط مليان بالأحقاد والنرجسية و(الشللية) والانغلاق على الذات من النخبة الموجودة فيه المسيطرة على المراكز والمنتديات والمؤسسات الثقافية المبنية على (شلليات) تربطها المصالح الأيديولوجية والشخصية، والمعايير الاستيعابية التي لا علاقها لها بالفن، وسط مليان بالمشاكل (المشاكل التي أؤلفت فيها كتب طبعت ونشرت ووزعت!) ، فلن يستوعبوك بينه لطالما مجازياً أنت ليس بصلعة كبيرة ونظارات و(كرفته) أنيقة و(فلان) الروائي الكبير صديقك، أو لطالما منظور لك أو موضوع في خانة (الكتابة الشبابية) وهو وصف استفزازي فيه تحييد للإبداع في معناه الجوهري يعني (صاحب كتابة مراهقة)!

فتجاوزا معاييرهم ومؤسساتهم وأوهامهم ونرجسيتهم البغيضة، وقوموا إلى ثورتكم يرزقكم الله وطن جميل على قدر جمالكم إن لم نقل على قدر فكركم الذي جزء منه أخلاقكم.

أما آخر القول وإلى بعض النساء: لا تكتبي بوجنتك بل بعقليتك، فالفضاء ملئ بالأيادي التي تخطف الفراشات لا قصيدة النثر!

فمن ذلك المنطلق، هذا الكتاب (الصراعات البشرية صراع الذات والآخر) هو يأتي خلافاً لتلك المعايير التي أشرنا لها؛ فهو يؤسس لمصطلح حديث للمعرفة هو ما أسميناه بـ(الفلسفة الكوميدية) وما يدور حولها من مفاهيم فلسفية، للوصول إلى مركزية الصراع البشري الذي تمثل لنا في أنه جوهرياً هو صراع (رفاهية) أو (لذة) ؛ فبعيداً عن التصورات الكلاسيكية التي قادت إلى الصراعات البشرية النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كصراعات العاطفة والثروة والمال والسلطة وإلى آخره – نسميها بالصراعات (السطحية) أو (الثانوية) – يقدم الكتاب فكرة أخرى لتعريف الصراع من حيثية فلسفية: في أن أي صراع سوى كان الفعل فيه هو فعل خير أو شر هو توالد بدافع الأنانية الباحثة عن متحصلات الرفاهية الذاتية؛ أي ببساطة حينا نتصارع حول سلطة الدولة فنحن نتصارع لإشباع (رفاهيتنا) أو (لذتنا) عبر الامتيازات الاجتماعية

والمادية التي نتوصل إليها عبر وصولنا للسلطة. هذا من الحيثية المركزية للتعريف بجوهر صراعات الإنسان، فهناك متلاحقات معرفية أخرى تُعرف بالإنسان في مظاهر صراعه الذاتي وصراعه مع الآخر.

(الفرد/ الجماعة/ المؤسسة/ الحياة كآخر) فالكتاب يأتي في ثلاثة فصول عملنا فيها على تحليل تلك الظواهر استناداً على توظيف مجموعة من العلوم والنماذج الانسانية في تجربة الحياة كتجربة الشاعر تشارلز بوكوفسكي والتشكيلي محمد حسين بهنس وفان جوخ والمترجم عبد الرحيم أبو ذكرى، وحركات تناهض الحياة في مألوفيتها كالبوهيمية والهيبية أو الخُنفوس و(**Les clochardes**) أي (المشردين، الصعاليك، المتسكعين، السكارة) وغيرها من النماذج الأخرى، هي:

١– مدخل إلى التعريف بالفلسفة الكوميدية وأسس الصراعات البشرية

٢–صراع الذات والآخر في صورته الفردية والجماعية والحياتية (أن تكون الحياة آخر)

٣– صراع الآخر في صورته الجماعية المؤسسية

من حيثية كلاسيكية في كتابة المقدمات كان يمكن أن نخلق مدخل تعريفي لكل فصل من الفصول، لكن بحكم رؤيتنا في أن التعريف هنا قد يختزل بعض الأشياء، أي كما قال الشاعر أنيس شوشان "عنونة القصيدة تختزل بعض أبيات القصيدة" ، بل من هذا المنطلق يمكن أن تكون أي مقدمة وإن كانت تقدم نوع من التشويق وعكس جزء من مفهوم العمل إلا أنها قد تختزل أو تسقط أشياء أهم من ما كتب في المقدمة.

،، عندما ينام الأغبياء تنهض الفلسفة لتتمشى في الشوارع الموحشة ،،

الصافي سعيد

مدخل إلى التعريف بالفلسفة الكوميدية وأسس الصراعات البشرية

ملاحظة: هناك مفارقات اصطلاحية ما بين مصطلح (الكوميديا الفلسفية) الذي يُعنى به تقديم الكوميديا كفن بصري بأساليب وأفكار فلسفية والمصطلح الذي يمكن اضافته حديثاً لقاموس المعرفة (الفلسفة الكوميدية) الذي يُعنى به تقديم الفلسفة كفن فكري بأسلوب كوميدي، وهو تأسيس فكري جديد لما يمكن تسميته بمدرسة (التفكير الفلسفي الكوميدي). فحينا نقول (فلسفة كوميدية) أو نخلق للفلسفة علاقة مع الكوميديا، إننا وفي هذه الدراسة تحديداً نختار موضوع مركزي أو أحادي هو (الرفاهية) لكننا كما هو في الفن المسرحي الكوميدي يمكن أن نشاهد رمزيات لأشياء لأخرى أو مواضيع أخرى بعيدة عن الموضوعية المركزية للكوميديا ! ولعل هذا الأمر إذا لم ينتبه له المتلقي سوف يشعر بالملل أو الارتباك في هذه الدراسة التي تدور أو تذهب وتأتي حول موضوع واحد دون وضع الاعتبار للمواضيع الثانوية الأخرى !

ففي الحقيقة إن الصراع الإنساني في كل أشكاله هو (صراع رفاهية) أكثر من كونه صراع وجود، وأكبر عدو للإنسان في هذا الصراع هو الإنسان نفسه؛

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتدخل في كل شيء بحثاً عن رفاهيته الذاتية؛ فلسفياً أو فيما يمكن تسميته (بالفلسفة الشعرية) هو يتدخل شعرياً في حرية (الجمادات) والمكونات الكونية (القمر/ الشمس/ النجوم/ الكواكب..الخ) وفي حرية الكائن الآخر (الحيوان/ الطائر..الخ) ذلك بـ(أنسنته) أو (فكرنته) أو (عقلنته) بحثاً عن رفاهيته الأدبية الشعرية المنتزعة بفعل الفكر .. (كلام مضحك ربما)! فالفلسفة لها جوهر كوميدي يعيد ترتيب الأشياء فى فوضاها غير المكتشفة أو المتصورة بالعين الواحدة!

– نموذج لفلسفة كوميدية: "الفراغ أسعد من طائر ينامُ على عُشه" هنا الشاعر الإنسان يتدخل في حرية (الفراغ) كمخلوق محسوس شعورياً له وظيفته الكونية التي يمكن تصنيفها في خانة (الشر). فما ذنب (الفراغ) هنا!؟ ربما من حريته يريد أن يكون (تعيساً)!

أما في ما يمكن تسميته كذلك بـ(الحضارة الأخلاقية) التي هي وليدة من رحم (الحضارة المعرفية) تؤمن الحضارة الغربية بالسلام شكلياً؛ فهي تعتقد أن (الشر) يمثل آلية مركزية لاستمرارية الوجود؛ لذلك أيديولوجيتها السياسية تنظر للحروب كآلية أخلاقية في صنع التوازن الكوني (رفاهية الأنا وجودها

مرهون بنفي رفاهية الآخر)! الرأسمالية بينها تمثل أحد أوجه الحضارة الغربية التي تنفي رفاهية الآخر!

أي في حقيقة الأمر أن البشر يشكلون رؤيتهم لتصور العالم ونهايته بأشكال مختلفة أو متناقضة هي ما ولدت كل الصراعات التي تدور في عالمنا منذ الأزل، فهذا النقيض الذي تكون في جوهر الأمر نتيجة البحث عن رفاهية ذاتية هو ما أنتج كل صراع إنساني، فمن منظور فلسفي كوميدي يمكن أن نعرف العزلة الاختيارية أنها لا تمثل مرض نفسي أو جنون كما هي معرفة في العلوم الطبية النفسية، بل هي رؤية لعالم آخر أو إنتاج عالم بشكل مختلف؛ أي بقدر ما يجتمع البشر يومياً في النوادي والأسوق والمؤسسات ومحطة المواصلات يجتمع بالمقابل ما يسمى بـ(الإنسان المنعزل) أو ما يمكن تسميته بشكل أكثر دقة بـ(الإنسان المنعزل عزلة بشرية) مع آلته الموسيقية أو لوحته التشكيلية أو كلبه أو قطه، وهو ما يمثل في معيار العقل الجمعي نقيض البشر الطبيعيون الذين في ذاتهم تحكمهم نواقض متعددة في تصورهم الحياتي والكوني، وفي تركيبتهم البيولوجوية وثقافاتهم ولغاتهم الفطرية التي أنتجتها الأديان السماوية والأديان المتخيلة واللاأديان (الخيال الثقافي) أو ما نقصد به تخيل اختراع الآلة الموسيقية والرقص كحالة شعورية تفاعلية والملابس والأكل والمشروبات الغذائية والكحولية، وهو بعكس ما أنتجته الأديان من ثقافة ثابتة هو (متجدد) ؛ أي كل الظواهر

الثقافية التي انتجت حديثاً وما سوف تنتج مستقبلاً هي من (خيال ثقافي) كتشكيلات الملابس وحلاقات الشعر والرقص وغيرها من ما يمثل نموذج ثقافي.

في ذات السياق السريالية كجنس فني، هي تعبير في البحث عن (رفاهية متطرفة) ؛ أي أنها رافضة للحياة الواقعية التي افترضها الخالق، وهي ما يمكن في العمق الفلسفي وفي تيار الفلسفة الكوميدية: (تكفيرها)! ذلك إن كانت تبتدع صورة متخيلة متمردة على طبيعة الحياة الواقعية اليومية!

فالرفاهية لها قلب ينبض، إذا عرفنا ذلك القلب بـ(التجديد) أي الرفاهية إن لم تتجدد أو تتوالد بأشكال مختلفة كمخلوق محسوس جسدياً وشعورياً سوف تقتل صاحبها نفسياً بالمقابل. فالإنسان يعيش لرفاهيته التي إن غابت تداعت بالمقابل في داخله دعوى لعبثية وجوده وقتل وجوده. لكن فوق كل ذلك تبقى الغرائز الإنسانية كأدوات للرفاهية تتجدد من تلقاء نفسها في عملية الهضم (أو أن لها معدة تهضم لتستحدث الرفاهية الغرائزية) ؛ فالجنس كنموذج هو (رفاهية غرائزية) تتجدد بفعل هضم الطاقة البشرية في كل ممارسة.

كذلك ما وجدناه في شاعرية (هوميروس) حول تأليهه للأرض في قوله «إنها ولدت الجبال الشاهقة والسماء المزدانة بالكواكب، ثم تزوجت السماء المحيطة

بها من كل جانب فولدت أقيانوس والأنهار، وأن أقيانوس المصدر الأول للأشياء» فما الذي يجعل من جانب فلسفي كوميدي الفيلسوف هنا يتدخل في حرية الأرض لـ(تأليهها)!؟

وما قاله المفكر التونسي الصافي سعيد : «عندما ينام الأغبياء تنهض الفلسفة لتتمشى في الشوارع الموحشة» هو تعبير فلسفي كوميدي؛ هل الفلسفة كائن حي لينهض ويتمشى في الشوارع الموحشة!؟ فالخيال الفكري الذي وظفه الصافي سعيد هنا هو موضوعياً من حيث دراستنا هو تفكيك لواحدة من الصراعات البشرية حول (الرفاهية) !

من حيثية أخرى في تصور الصراعات البشرية من منظور فلسفي كوميدي: هل يمكن الإنسان أن ينتج شيء بدون (لون)!؟ بالتأكيد لا أو لا يمكن أن تنتج أو تتخيل شيء سوى الفراغ، لكن الله له قدرة أن يخلق شيء بدون (لون) وهنا السؤال الذي يفرض نفسه: هل أنت كبشري يمكن أن تتخيل ذلك (اللون)!؟ أي أن تتخيل شيء (لا لون له) !؟

كذلك هل يمكن للإنسان أن يتخيل صورة كائن حي أو جماد ليس له وجود مسبق أو صورة في الذاكرة البصرية بدون ما يقتبس صور من الكائنات الحية أو الجمادات الأخرى!؟ أي بمعنى أن كل صورة يتخيلها العقل البشري هي ناتجة

من الذاكرة (فلا يمكن إذن تخيل صورة حديثة لكائن حي أو جماد دون اقتباس أو استجماع جزئيات من الذاكرة البصرية لتلك الكائنات والجمادات الموجودة في عالمنا) ! وهو أمر أشبه بحالة اللوحة التشكيلية لكائن بشري لا يمثل اي شخصية في الواقع لكن الفنان رسمه من ذاكرة عدة صور بشرية استجع فيها ذاكرة الأنف من شخص وذاكرة الأذن من شخص آخر والشعر والعيون واللون كذلك وإلى آخره من شخوص أخرين!

فالغرض من هذا التفكير هو الوصول إلى أن الرفاهية البشرية هي رفاهية تموت بالتكرار أو إعادة التجريب، لذلك نحن في عالمنا البشري نحتاج إلى تحديث أو تنويع في رفاهيتنا – ومن المؤكد أن أي تحديث لرفاهيتنا هو مبني على صراعات بشرية (ذلك إذا نظرنا إلى أن كل الأشياء تجتمع حولها علاقات مادية وعلمية أو تشابكات كصناعة السيارة هي تمر أو تجتمع بعدة علاقات مادية وعلمية ما بين عالم سيارات وعامل السيارة وشركة السيارة وما بها من عمال وموظفين إلى دولة تتحكم في الايراد والتصدير ومواد خام تتكون بها العميلة الانتاجية الصناعية للسيارة وإلى آخره؛ فداخل كل تلك التشابكات تتوالد صراعات أو حروب بشرية صغيرة وكبيرة منها مركزها أو جوهرها هو الصراع المادي أو بمعنى أكبر الصراع الاقتصادي (صراع الموارد) الذي يعني مجازياً صراع الرفاهية) – لذلك كثير من حالات الجنون والانتحار هي ناتجة من الوصول

لحالة (اشباع رفاهي/ رفاهية) أو (جوع أو نقص رفاهي/ رفاهية) فالذي ينتحر نتيجة أن حبيبته تخلت عنه هو انتحار ناتج من عدم الوصول لحالة (اشباع رفاهي/ رفاهية) ! والذي يجن كذلك هو يجن بذات التماثل أو العكس في حالة (الجنون الواعي/ الجنون الذي يُمارس بوعي) أو ما يشبه الحالة البوهيمية (التمظهر شكلياً في الحالة الشخصية وفنيا في المادة الفنية بشكل غير مألوف) أو ما يمكن تسميته (بالجنون الاختياري/ تمثيل الجنون) يجن بسبب الوصول إلى حالة (إشباع رفاهي/ رفاهية) أو بشكل آخر في الحالة الجنونية الواعية كما عرفناها مسبقاً، أنه وصل إلى حالة تصور الحياة كصورة روتينية مكررة من العبث! لذلك هو يبحث عن صورة أخرى غير مألوفة (صورة لا تتماثل فيها الحياة كحالة عبثية) كنوع من تحديث الرفاهية التي هي في حقيقة الأمر أصل صراعنا البشري (فكل صراع بشري هو في جوهره هو صراع رفاهية) حتى ما يسمى بالصراع الوجودي هو في الأصل (صراع رفاهية) أي ببساطة إن لم تكن هناك رفاهية في عالمنا لما كانت هنالك بالمقابل رغبة وجودية !

أي ببساطة إذا لم نجد تحديث لرفاهيتنا سوف نلجأ لحالة التفكير اللامألوف في أن نتخيل أشياء مستحيلة (تحيل نفسها للجنون) أو تمثل عالم آخر (سريالي) كتخيل أشياء لا (لون) لها أو كائن أو جماد لا صورة مسبقة له في الذاكرة !

وللتوسع في إيصال المفهوم ببساطة يمكن النظر من منطلق ما أشرنا له مسبقاً أن تحديث الرفاهية أولدت التكنولوجيا التي منها نفسها توالدت أفكار تكنولوجية حديثة لتشبع رفاهيتنا! فإذا لم تكن للرفاهية (رحم) ماتت الرغبة الوجودية في قلوب البشر بالمقابل!.

الخيال كأداة بيولوجية مركزية لخلقية اللذة (الرفاهية)

إن كل فكرة هي نتاج الخيال وكل خيال هو نتاج الذاكرة (يموت الخيال في ظل موت أو عدمية الذاكرة بالمقابل) ، فمن هذا المنطلق يمكن أن نفهم أن كل النظريات والفلسفات والأيديولوجيات الذي أنتجها الخيال هي غايتها الرفاهية. بما في ذلك حتى تخيل الآلهة والأديان والتفكر حول الكون بدايته ونهايته وما يدور في داخله من ظواهر وصراعات هو يقودنا لغاية الشعور بالأمان الذي يعني جوهرياً الوصول لنوع من الرفاهية؛ أي لا يمكن للكائن البشري أن يمارس الرفاهية في ظل الشعور بالخوف والاحساس بالألم !

فحينا نتخيل أو ندارس الكون علمياً أنه في حالة من الاستمرارية التجديدية في مدى استكشافنا له، بقدر توسعه (حركياً) مع تمدد الزمن، لحد الانفجار الذي بدأ به والذي سوف ينتهي به كذلك! ما بعد نهاية (الطاقة) أو من جانب آخر أن الكون سوف يستنزف في لحظة ما طاقته التي يتوسع بها؛ ففي حالة توقف الكون عن التوسع، فإن السيناريو الأكثر احتمالاً من بين كل الاحتمالات العلمية الفيزيائية(التجمد الكبير أو الموت الحراري/ التمزق الكبير/ الانسحاق العظيم/ الفراغ الزائف) هو الحركة المعكوسة لما يسمى (بالانفجار العظيم) –

ذلك بحسب بعض الدراسات العلمية لعلم الفيزياء الفلكية – فالتصور الإسلامي الذي يصور النهاية الكونية أنها تأتي مع ظهور المسيح الدجال، هو ما يمكن أن نستنتج منه أنه يرتبط مع النهاية العلمية للكون بموت الطاقة (التي تعني انقطاع إشارات التلفاز والراديو والانترنت.. الخ) ذلك في كون أن الإنسان يكون ذهنياً وبصرياً وسمعياً مرتبطاً بهذا الظهور للمسيح، ففي ظل وجود الطاقة ينفصل ذلك الارتباط لتحدث حالة فراغية إنسانية تسمح بالاتصال مع ظاهرة المسيح! فبحسب عالم الكهرباء الصربي (نيكولا تسلم) إذا أردت أن تفهم أسرار الكون فكر في الطاقة (الترددات والذبذبات) فكل شيء له طاقة وذبذبات! أي موضوعياً قبل ٤٠٠ سنة كانت الشعوب الأوروبية – بما فيها الأنتليجنسيا منها – تنظر إلى مرض الصرع (**Epilepsy**) على أنه فعل شيطاني أو أن كائناً شيطاني يتحكم في تخبط الإنسان عند حالة الصرع، لذلك يتعاملون مع ذلك الوهم بالقتل (أي تحديداً حرق المصابين بمرض الصرع) حتى مطلع القرن التاسع عشر، إلى أن أتى العلم وعرف بمرض الصرع على أنه (مرض عصبي في الدماغ)! أي بحسب عالم الأعصاب (ربورت سابولسكي) أنه يعود إلى طفرة جيناً مرتبطاً بعمل قنوات البوتاسيوم في الدماغ. أي حينا ندارس ذلك علمياً بذلك التعقيد أننا في الحقيقة ندارسه للبحث عن رفاهيتنا

(النظر في الكيفية التي تنتهي به رفاهيتنا الكونية) وهو تفكير ناتج من الخوف من مصير افتقاد اللذة (الرفاهية) !.

أما في ما يمكن التعرف عليه: أن الأديان تمثل عند الناس الأكثر إيماناً حالة خلاص من الاكتئاب والأمراض النفسية والعضوية حتى ومن المعاناة والفقر وكل ما يرتبط اعتراض طرق الحياة، وهناك إيمان أو اعتقاد مطلق بوجود كائنات غير مرئية مثل الجن والشياطين تمثل جانب الشر أو الجانب المحوري فيما يجعل الإنسان في حالة صحية أو حياتية عموماً سيئة، أي هي التي تتحكم في إحكام حرية إرادتنا، والعكس تماماً للمؤمنين بالكجور والسحر (بأن افتعالها يأتي نتيجة تواصل مع تلك الكائنات غير المرئية) يضعونها كمعيار أو آلية للخلاص، هذا التصور يمنحنا مفهوم بشري أو أن هناك طبيعة بشرية فطرية: في أن لا بد في ظل وجود الشر أن تكون هناك أداة تمثل وسيلة نجأة أو خلاص أو ربح يزيح عننا الشر؛ هي ما يمكن أن نعتقدها في تمثل الإله أو الكائنات غير المرئية أو أي قوة مطلقة نتصورها أنها تتحكم في حركة الكون، بل حتى الذين لا يرون أن تلك الأدوات التي تمثل حالة (الخلاص/ النجأة) غير كافية ابتكروا العملية التنبئية والغيبية أو ما يعرف (بالأبراج) على الصحف اليومية والمنصات الإعلامية، أي قبل افتراض الأديان ومعرفة تلك القوة المطلقة كيف كانت الطبيعة البشرية تتعامل مع معتقدات وجود الشر والخلاص منه (ما هي وسائل

مقاومة الشر التي كانت متاحة في ذلك الزمن)!؟ وهل يمكن لطبيعة الإنسان أن تجعله قادراً على العيش والتكيف بدون تلك الآليات بما فيها المعتقدة المتخلية (غير الخاضعة للمنطق أو النموذج) أو المتوهمة منها (كالأبراج) والآلهة كذلك!؟

قد يقربنا الفيلسوف (اسبينوزا) إلى الإجابة حول قوله: إن كل ما كان يعنيه البشر عندما تصوروا لأنفسهم آلهة منذ أقدم العصور، هو أن يجدوا في الكون قوة تفهمهم وتتصل بهم على نحو، وتقدر أمانيهم على الأقل، إن لم تكن تحققها. أما (برتراند رسل) يعتقد أن معظم البشر يؤمنون بالله لأنهم تعلموا أن يؤمنوا به منذ نعومة أظفارهم، هذا هو السبب الرئيس، وأقوى الأسباب بعد هذا السبب هو الرغبة في الأمان، أو نوع من الشعور بوجود أخ أكبر يعتني لك أو يلعب هذا السبب دوراً عميقاً في رغبة البشر في الإيمان بالله.

أي أن الإنسان بطبيعته لا يستطيع أن يعيش بدون تلك ادوات (النجأة/ الخلاص) التي أشرنا لها، حتى الملحدين الذين لا يؤمنون بوجود قوة مطلقة تحكم الكون يتمثل الوعي أو الإدراك تحديداً – الذي أتى نتيجة وعي علمي ومعرفي – لا شعورياً عندهم مصدر (قوة) تحل عوضاً عن وجود تلك القوة المطلقة، لذلك (البشرية ما قبل الأديان) ابتدعت لها آلهة وأساطير، أو

أسطورة بشرية تحديداً، فالأسطورة من خلال تعريفها فيما يقصد بمصطلح (الميثولوجيا) أنها مجموعة من القصص التقليدية أو المقدسة أو التي تتحدث عن الآلهة، وما عرفها القرآن الكريم انها تعبير عن القصص القديمة للأولين، أما الأنثروبولوجيا تفسر الأسطورة بأنها نتاج لتركيبات العقل المُتناغمة. وهي جماع التفكير والتعبير عن الإنسان في مراحله البدائية. وإنها عمل لا واع جماعي ينبثق عن الغريزة القومية وتعبير عن الشعور الجماعي. وهي التفكير في القوى الفاعلة الغائبة وراء مظهر العالم، وكيفية عملها وتأثيرها وترابطها مع عالمنا وحياتنا، وهي الأداة الأقدم للتفكير الإنساني المبدع التي انتهت بالعلوم الحديثة، أو هي الوعاء الذي وضع فيه الإنسان خلاصة فكره، والوسيلة التي عبر بها عن الأنشطة المختلفة التي مارسها بما فيها النشاط السياسي والديني والاقتصادي، أو هي الوسيلة التي حاول عن طريقها إضفاء طابع فكري على تجربته، وأن يُفلسف حقائق الحياة العادية، ولو أن هناك اختلافات تعريفية حولها بين مجموعة من الباحثين، كما عرفها قاموس ماكميلان أنها قصة تقليدية قديمة عن الآلهة، والأبطال، والسحر، وبأنها سرد رمزي، عادةً ما تكون ذات أصل مبهم أو مجهول، وتكون إلى حد ما تقليدية جزئياً، وتتعلق في الظاهر بأحداث فعلية، ومرتبطة بشكل خاص بمعتقد ديني، أما (كيريني) يرى أن الأسطورة في المجتمع البدائي، أي في شكلها الأصلي المعاش – ليست مجرد حكاية تحكى،

ولكنها حقيقة مُعاشة. وإنها ليست اختراعاً، ولكنها حقيقة حية يعتقد أنها حدثت في أزمان أولية، وأنها لازالت تمارس تأثيرها على العالم وعلى مصائر البشر، وهي المعرفة التي تمد البشر بالدوافع إلى القيام بالأعمال الطقسية وبالعادات الأخلاقية وبالتوجيهات لممارسة هذه الأعمال والعادات.

أي يمكن أن نفهم من خلال ذلك أنها لم تأتي من فراغ (خيال) بل أنها أتت نتيجة لذاكرة أولية (تمثل فعلي لها) ثم تمددت عبر (الخيال) فأنتجت أساطير (متخيلة/ معتقدة) و أساطير واقعية متشبهة بها (كالأساطير البشرية: الفنية منها) ، بل هناك أساطير يمكن أن نسميها (بالأساطير الرمزية/ أسطورة الرمز) ! إذا فهمنا في علم الرموز (**symbologie**) أن الرموز أخذت ارتباطاً روحياً؛ فأصبح هناك تصنيف يعرف (بالرموز الروحية/ الرمز الروحي) التي تستخدم كقلادات تلبس على العنق، مثل رمز (الهمسة) المقتبس من اللغة العربية (أي أن الهمسة تعني: الرقم خمسة) وهو رمز يستخدم (للحماية) ويرتبط بعين الشر لحماية الأشخاص من الطاقة السلبية والأرواح الضارة؛ فوفقاً لتاريخ هذا الرمز الروحي إذا كان أحداً ما يخطط لائذاك في وجود هذا الرمز عليك سوف يفشل في ذلك! ومثل رمز (عنخ) أو (مفتاح الحياة) وهو الرمز الأكثر شهرة واحتراماً لدى المصريين وهو يستخدم لجلب الحظ السعيد والحماية من الطاقة السلبية ويرتبط بمفاهيم نسمة الحياة والحياة الأبدية، ورمز (شجرة

الحياة) أو (شجرة العالم) التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفاهيم الحياة والولادة والموت، حيث تحظى بالتجبيل من العديد من الأديان والتقاليد والثقافات حول العالم، وغيرها من الرموز مثل رمز (زهرة اللوتس) و(زهرة الحياة) و(عين حورس) و(اليين يانغ) و(الخماسي) و(أوم) التي استخدمتها مختلف الحضارات القديمة التي لم تلتقي لغياب العولمة في ذلك الزمان، ولعل هذا ما يثير بعضاً من الدهشة: إذا فهمنا أن البشرية في ذلك الزمان (ما قبل الحداثة) كان بينها توارد خواطر أو الحالة الفكرية بينها في ما يتعلق بالكون والوجود – إن كان علم الرموز يرتبط بالمعرفة الكونية والوجودية – متشابهة للحد البعيد أو متطابقة تماماً، فالتقت في رموز مثل رمز (زهرة الحياة)!.

كما يظل أن أكثر من استخدموا الرموز هم قدماء المصريين والإغريق، والأكثر استخدماً للرموز بينهم هم الرومان؛ فهناك أعداد كبيرة من الرموز موجودة بين أطلال مدن رومانية قديمة، التي منها ما يمثل الماعز للدلالة على حانوت لإنتاج اللبن.

إن الثقافة والبيئة والعادات والتقاليد لأي مجتمع تحدد دوافع الإنسان الذي خرج منها، كما تعمل على أدلجة فكره، فاختلاف الثقافات هو ما أنتج لنا بالمقابل آلهة مختلفة مثل إله الهندوسية، والبوذية، والإنكا، واليوروبا،

والرومانية، والمايا، والمسيحية، واليونانية، والشنتوية. كما أن بعض التجارب العلمية التي أجريت على أطفال عاشوا كل حياتهم في (الغابة) أصبح سلوكهم حيواني، ورافضين تلقائياً للحياة ضمن مجتمع بشري (لفشلهم في الاندماج والتكيف) ومنهم من انتحر حينا حاولت بعض الجهات العلمية دمجه وتكيفه مع مجتمع بشرى! ولعل هذا ما يمتد بنا إلى: أن في كل الأشياء لا توجد حيوية أو حركية أو فاعلية أو تمددية للفردية، فكل شيء قائم في جوهره على ثنائية أو تزاوج وإن كان أحدهم يمثل النقيض في حالة تفاعل الموجب والسالب معاً! حتى توجهات فكرنا هي قائمة على عملية تزاوج علمية ومعرفية هي ما شكلت وعينا الذي يمثل المادة الخام لفكرنا، كذلك الطبيعة هي ناتجة من رحم تزاوج كالجبال التي تنقسم إلى ثلاثة أنواع رئيسية: الجبال البركانية (**Volcanic Mountains**) ، الجبال الإلتوائية أو المطوية (**Fold Mountains**) ، والجبال الصدعية (**Fault Block Mountains**) ؛ حيث يتكون كل نوع بطريقة مختلفة عن النوع الآخر، كالجبال البركانية التي تتشكل نتيجة انزلاق صفيحة تكتونية أسفل صفيحة أخرى، أو أسفل نقطة ساخنة، لينتج عنها اندفاع الصهارة إلى السطح الخارجي للقشرة، من ثم تبرد وتتراكم لتبني جبلاً بركانياً، ومن الأمثلة على هذا النوع من الجبال: جبل فوجي في اليابان،

وجبل وماونا كيا في هاواي، جبل ونيامولاغيرا في جمهورية الكونغو الديمقراطية، جبل إيتنا في صقلية.

والجبال الإلتوائية التي تتشكل نتيجة لغوص إحدى الصفائح الأرضية أسفل الأخرى ضمن ما يُعرف بظاهرة الاندساس (**Subduction**) والتي غالباً ما تحدث عند الحدود المتقاربة، عندها تتشكل الجبال الالتوائية نتيجة الضغط الهائل من المواد الصخرية الموجودة في نطاقات الاندساس فوق الصفائح المتراكبة، وعادةً ما تشهد هذه المناطق نشاطاً زلزالياً متكرراً نتيجة للتفاعل الحادث بين طبقات الأرض المتحركة والجبال الصدعية التي تتشكل نتيجة اصطدام الصفائح ببعضها البعض، ولكنها لا تنثني كما يحدث عند تكون جبال الالتوائية؛ بل تنكسر مكونة تصدعات أو شقوق في القشرة الأرضية؛ مما يدفع الصهارة الموجودة داخل القشرة الأرضية للاندفاع إما للأعلى فتكون الجبال الصدعية، أو للأسفل فتكون الصدوع الأخدودية، من الأمثلة على الجبال الصدعية: جبال سيرا في نيفادا، جبال الغابة السوداء في ألمانيا.

كذلك عملية التزاوج تشمل العلوم أو موجودات الكون جميعها – إلا الكون في نفسه كحالة فردية – كالكيمياء أو تحديداً تزواج (الثيميدين) مع (الدينين)

في الحلزون المزدوج للحمض النووي. والثيميدين هو نوكليوسيد بيريميدين يتكون من قاعدة بيريميدين الثايمين المرتبطة بالسكر ديوكسيريبوز.

أي هناك مفارقات ما بين مصطلح ملاحظات واستكشافات: فالملاحظ هو الحاضر الذي يحتاج لرؤية دقيقة أو عميقة ليصبح في خانة المريء، أما المكتشف هو الغائب الذي يحتاج لآلية قد تكون العقلية والعين نفسها (وهذا ما لا يمثل نقيض) إذا فهمنا أن النظر داخل الكون يمثل (الملاحظة) والنظر في خارجه يمثل (الاستكشاف) ، لذلك سوف أقول من الملاحظ أن كل شيء هو نتاج تزاوج أو ثنائيات أو ثلاثيات أو رباعيات وإلى آخره؛ الأرض تتزاوج مع الأمطار لتنتج آخر وهكذا، أما الماء هو العنصر المركزي المنتج لكل ناتج أو المتداخل مع كل منتج وناتج إن لم نقل (الماء رحم الأشياء) ، إذن النقطة المركزية في الكون هي الماء؟ لكن ماذا إذا فقدت مياه الأنهار والبحار والمحيطات الرياح والأعاصير!؟ سوف تصاب بالجفاف! حتى مياه الأمطار تتزاوج بشكل أو بآخر مع الرياح أو الهواء تحديداً؛ فنظرية الاندماج تشير إلى: أن الأمطار تنشأ من بخار الماء في الغلاف الجوي، ويتكون بخار الماء عندما تتسبب حرارة الشمس في تبخر الماء من المحيطات وغيرها من المسطحات المائية – يمكن مطالعة نظرية الاندماج بشكل أوسع – كذلك نظرية البلورات الثلجية تشير بشكل أو بآخر تزاوج الهواء مع المياه بصورة (طردية) ذلك عندما يصل وزن

البلورة إلى حد لا يعود الهواء قادرِا على حملها، لتسقط من السحابة. إذن الذي يبدو واضحاً أن الرياح والأعاصير تمثل النقطة المركزية في الكون كما يمكن أن تكون الشمس كذلك (بهذه الكيفية أو ما يمكن أن أسميه بنظرية (التزاوج) يمكن أن يكون كل شيء مركزي لتوازن الكون)! وإذا كان الأمر كذلك أو أن سيرورة الكون قائمة على التزاوج ما هو زوج الكون نفسه أو أب الكون!؟ كيف أتى الكون (بمفرده)!؟

يبدو من الواضح من خلال شرحنا، أن افتراض الآلهة في كل الديانات أتى نتيجة التفكر في القوة المطلقة أو الخارقة للطبيعة التي تمثل حالة (النجأة/ الخلاص) وفي ظواهر الكون الذين أنتجوا لنا التفكر في السؤال حول (وحداوية الكون!؟) كيف أتى الكون (بمفرده)!؟ خصوصاً إذا تجاوزنا التصورات الدينية السماوية واعتقدنا أن الإله يمثل حالة فردية والكون يمثل كذلك حالة فردية فربما إذا كان الإله أتى بدون خالق فإن الكون نفسه يكون أتى بدون خالق (إله)!؟

لكن قبل الوصول إلى الإجابة، لا يمكن تجاوز: أن بقدر ما هناك (حيوية) تتشكل عبر عملية تزاوج هناك كذلك (فناء) أو (موت) يتشكل بذات الكيفية التزاوجية عبر عملية التزاوج نفسها أو ما يمكن أن نسميها بحالة (التزاوج

الطردي)! فكل مادة تشغل حيز من الفراغ تموت نتيجة تأثير مادة أخرى على حيويتها.

فالسؤال والإجابة على الوجود وما يتعلق بالكون والذات الإلهية تختلف الطرائق والقناعات فيه، نتيجة لاختلاف الذاكرة أو الروابط الفكرية والبصرية المرتبطة بالذهن، وهي التي افترضت ما أسماه عالم الفيزياء ستيفن هوكينغ (الواقعية المعتمدة على النموذج) فالفكر الديني هو واحد من تلك الواقعيات التي تمثل النموذج، كما العادات والتقاليد والثقافات كذلك، لذلك إن عملية التصور ومدى الإقناع عند المسلمين تختلف عن البوذيين والعكس عند البشرية التي تنتمي لديانات أخرى، وإلى لا دينياً! فالايمان بالفطري والموروث لا يمكن تجاوزه إلا بإرادة عقل (علمي/ معرفي) يؤمن بمنطق النمذجة التي أشار لها ستيفن هوكينغ؛ لذلك يلاحظ أن غالب الذين يوصفون بالزندقة والإلحاد والمبتدعين أو الذين حطموا الأفكار التقليدية أنهم علماء، مثل ابن سينا والرازي والكندي في العصور القديمة، وبشكل أو بآخر الأنبياء والرسل يحسبون علماء، لكن لم يجدوا الكرامة من قومهم (لمخالفتهم السائد) فثمود آذت النبي صالح وقريش آذت النبي محمد..الخ. حيث يدعم البروفيسور في الفيسيولوجيا العصبية بجامعة موسكو الرسمية (د. فياتشيسلاف دوبينين) هذا المفهوم: بأنه ينطبق على الفن والفنانين نفسهم!

فإذا تجاوزنا كل تصورات الأديان وفكرنا بمنطق العقل واكتشافات العلم، لا يمكن أن تكون الدقة التنظيمية المدهشة لهذا الكون واللاأدرية حول السؤال (هل للكون حافة!؟ أو هناك وجد لما هو خلفه!؟) هي ما أوجدت نفسها بنفسها، فمنطق العقل لا يمكن أن يجيز بناء شيء بدون عقل أو فهم أو حساب (كل شيء مبني بحساب هو مبني من مادة حركية أو حيوية لها فعل غريزي وفكري) ؛ والكون كمادة ليست حيوي أو بلا (غريزة/ فكر/ عقل) ، حتى الحيوانات تتناسخ فيما بينها لها عقل وهذا أمر يثبته عالم الأعصاب والحيوان (ربورت سابولسكي) عبر ما أسماه بنظرية (العقلية البدائية) في أننا كبشر ليس النوع الوحيد الذي يملك تلك (العقلية البدائية) كنموذج أن الحيوانات تصطادُ فرائسها بخطط استراتيجية! ما يعني أنها (تفكر) أو صاحبة (عقل بدائي)!.

إننا من خلال ذلك التفكير المعقد حول تصور الآلهة والكون والطبيعة، نريد أن نصل لفكرة الصراعات البشرية حول الرفاهية، ذلك في أننا حينا ننتج آلهة وأديان متخيلة نحن ننتج أيديولوجيات دينية هي ما تمثل الصراعات أو الحروب البشرية على أساس ديني وثقافي – إذ أن كل دين له هوية ثقافية – هي في جوهرها حروب الغاية منها هو الصراع على (الموارد) وهو ما يقودنا بالمقابل للتطور العلمي على مستوى الأسلحة النارية والنووية والكيميائية

والبيولوجية؛ أي ما يقودنا لمفهوم أن آلية الحرب أو الصراع هي نتاج الحصول على (الرفاهية) !

هوامش:

- رحلة في الذاكرة ما الذي يجعلنا نتمرد؟ البروفسور في علم الفيسيولوجيا العصبية بجامعة موسكو فياتشيسلاف دوبينين (RT)

- ما الذي يميز البشر!؟ ربورت سابولسكي

صراع الذات والآخر في صورته الفردية والجماعية والحياتية (أن تكون الحياة آخر)

إن أي صراع ضد الحياة هو صراع ذاتي، أي حينا تختار أن تفلسف الحياة في عيشها بأسلوب خاص أو (تفكرن) أو (تأنسن) أشيائها لتخلق عالم مثالي أو تختلق عالم من تصورك الذاتي برؤية نقيضة للرؤية الإلهية، هو صراع في جوهره صراع ذاتي؛ فأنت إذن رافض لطبيعة الأشياء، لطبيعة أن هنالك إنسان لص ومغتصب وقاتل ومختزل (يختزلك عاطفياً) أو يختزلك في أي معاملة اجتماعية يومية، وإلى آخره، فهذا الرفض عبر عملية (الخيال) التي تقوم بها كبشري أحياناً قد تصل بك إلى مرحلة (الشك) أو (الجنون) إذا عرفنا (الجنون) أنه ليس مرض عقلي بل هو تصور للحياة والأشياء بشكل مختلف، أي كل صراع هو صراع تحركه آلية (الخيال) و(الخيال) في بعض الأشياء المتعلقة بالوجود هو ما يفترض لك (الشك) الذي يقودك (للإلحاد) وهو الأمر الذي فلسفه (ديكارت) حينا بدأ يطرح لنفسه سؤال (الشك): ما الذي يمكنني أن أكون متأكد منه؟ فأنا أؤمن بأن هناك إله لكن لا أستطيع أن أتأكد بأن هناك إله؟ أؤمن بأنني أعيش في دولة ثرية لكن ربما تم خداعي؟ أؤمن بأن لدي عائلة وأصدقاء

لكن ربما يتم خداعي؟ ربما خدعني شيطان شرير على سبيل المثال؛ قد أوهمني لأفكر بأنني أحظى بتلك التجارب والتي هي غير حقيقية؟

فالنسخة الحديثة من هذا، هو فكرة المصفوفة، المبنية على مخاوف (ديكارت) حول الشيطان الشرير: أي ربما كل شيء تشعر به الآن هو غير حقيقي أو ربما هو نتاج مخلوق خبيث آخر؛ أي لقد شك (ديكارت) أن له جسد! ففي الواقع، لقد لاحظ أن (المجانين) يعتقدون أحياناً أن لهم أطراف إضافية أو يعتقدون بأنهم مختلفون في الحجم والشكل عما هم عليه حقاً .. فحول ذلك تسأل (ديكارت): كيف أعلم أنني لست (مجنون)؟ فالأشخاص المجانين لا يعتقدون بأنهم مجانين في الحقيقة، فعندما لا أعتقد بأنني مجنون هذا لا يعني بأنني لست مجنون. كما تسأل كذلك: كيف أعلم أنني لست أحلم الآن؟

فالشيء الوحيد الذي لم (يشك) فيه (ديكارت) هو أنه لا يمكنه أن (يشك) بأنه يفكر. وهذا ما يمثل دحض ذاتي.

لعل هذا ما يقودني إلى مفهوم الحياة حينا تُعاش بوعي مجنون أو بجنون واعي! أي في تلك اللحظة إذا شاهدني أحد أنني كنت أضحك لوحدي ضحكات كبيرة، لقال أنني (مجنون) بتأكيد من (أسعد الحبر) صديقي الذي هو مجنوناً أكثر مني إذا اختزلنا (الجنون) كما عرفه ميشيل فوكو، (أسعد) الذي في هذه

اللحظات أشتاقه ولا أخاف عليه من عصابات النهب في الجزيرة فهو (أذكى) إنسان أعرفه في العالم .. فلو لا قدر الله لن تهزمه أشرس الأسلحة العبقرية التي أنتجتها الحضارة الغربية .. وهو الأمر الذي يعيدني كذلك لبطل قصة (بركة ساكن) ذلك الطفل الذي ذهب للنهر الذي لم يكن يقترب منه أحد لأنه مسكون بالجن فأصبح أخطر من الجن نفسهم الذين حينا شعروا بخطورته طردوه في آخر الأمر، أما إذا سألني لماذا كنت أضحك لوحدي حينها!؟ لما كنت أستطيع أن (أشرح) له لماذا أنا أضحك لوحدي! ليس لأني أفتقد لقُدرت (الشرح) بل لأن ما أفهمه أنا وجعلني أضحك لا أحد يستطيع فهمه خلافي سوى مجنون آخر أسمه (اللاشيء) كمخلوق (أنسنته) ليفهمني ولا يفهمني! ولعل هذا ما يعيدني لسؤال سألتني له سيدة بعد أن قرأت كتابي (إبستيمولوجيا الجنون والفنون): أنا بعرفك جيداً فما هي المرحلة التي وصلت لها من فلسفتك للحياة؟ فأجبت لها بأنني وصلت مرحلة أسميها (مرحلة ما بعد الجنون) بمعنى أن هنالك شيء أعلى من (الجنون) نفسه! ربما أن شاعر مثل تشارلز بوكوفوسكي اقترب منه ببعد لحظات ومحمد حسين بهنس ترجمه لفعل يذهب بقدمين في شوارع القاهرة؛ حينا اختار أن يفلسف الحياة فعلاً؛ برفض مألوفيتها أو كلاسيكيتها في صورتها البشرية اليومية .. فما معنى أن تكون إنسان كلاسيكي المظهر، الجوهر، الكلام، لديك أحلام وطموحات، لديك حبيبة

تقول لك آخر الليل (أحبك)!؟ ما معنى أن تذهب لصاحب الدكان وتقول له: أريد سيجارتين وصابونة لايفوي وعلبة أمواس!؟ لعل هذا أسوأ (اختزال) يمكن أن يعيشه إنسان حينا يصل مرحلة من (الخذلان) تؤكد له (عبثية) الحياة ! فهذا ما وصل له (بهنس) تحديداً؛ حينا تراكمت عليه (الاختزالات) بانفصال زوجته وموت أمه الذي أعقبها موت أخيه وموت المال نفسه (المال في الغربة وطن) و(الفقر بندقية تقتل كل الأحلام) بما فيها سندوتش رخيص من الفلافل .. وما هو مدرك وما هو غير مدرك (لما كان يعيشه بهنس من اختزالات) فعاش الحياة (مجنوناً بوعي) أو (بجنون واعي) أو (بوعي مجنون)!

إن أعلى درجات التفكير هو سؤال لماذا نعيش بهذه الكيفية أو لماذا نعيش في هذه الأرض وننجب نسخ بشرية منا!؟ وهو السؤال الذي يؤرق الغرب (لكون الغرب وصل إلى كل مراحل التفكير) كما هو سؤال (انتحاري) حينا نرفض الحياة بشكلها الآني، فالانتحار هو تفكير فعلي لاستكشاف حياة أخرى بكيفية أخرى أو وصول لعدمية الحياة، وهو آخر مراحل التفكير، التي تتوالد من انعدام أو فشل تحقيق الرغبات .. لكن ما ليس مفهوم في هذا الكون هو أن التوازن الكوني مبني على سياسة الانقراض؛ أي الحيوانات تتغذى أو تتقاتل في بعضها البعض لتوقف عملية التكاثر العشوائي (فالحيوان كائن لا يمتلك العقل لينظم عملية التوالد عنده) لذلك هو تقل عنده عملية التكاثر عبر

الحيوانات الأخرى التي تتغذى عليه، كذلك الكائنات البحرية أو تحديداً الأسماك التي تتغذى على بعضها البعض؛ فإذا لم تفعل ذلك لأصبحت أكثريتها تفوق حجم المياه في الأنهار والبحار والمحيطات، فالإنسان ككائن حي هو يتماثل مع الكائنات الأخرى من حيثيات أخرى! أي الجميع في هذه الحياة لن (يتزوجوا) ولن يكونوا أثرياء ولا كل الرغبات يمكن أن تتحقق للإنسان؛ فكل ذلك مبني على افتراض الانعدام أو الفشل في تحقيق الرغبات للمحافظة على توازن الكون.

فانعدام تلك الرغبات هو ما يولد الرغبة الضدية (الانتحار) ، أو الرغبة في العيش بنمط حياة غير مألوف كمثال لحالة (الجنون) أو (مرحلة ما بعد الجنون)!

لكن لا بد أن نفهم أن أي صراع ذاتي هو في جوهره صراع آخر، ذلك إذا قسمنا الصراع إلى نوعين (صراع نفسي وصراع بيولوجي) ونظرنا كمثال إلى المكان الذي نتصارع معه هو (آخر) أي المكان كصورة معمارية حضارية وكخدمات إنسانية من مياه وكهرباء وانترنت وغاز وجاز وخبز وإلى آخره (فجودة هذا الآخر هي ما تحدد شعورنا النفسي الذي يتوالد منه صراع الذات) ، الطقس أو الطبيعة هو كذلك صراع آخر (الطبيعة كآخر) وهو ما نقصد به (الصراع

البيولوجي) فبحسب التحليلات النفسية أن هنالك أشخاص ترتفع نسبة الاكتئاب والأمراض النفسية في فصل الشتاء وآخرين ترتفع عندهم النسبة في فصل الصيف أو الخريف أو الربيع.

فوق كل ذلك يظل السؤال الأعنف هو سؤال صراع الافتراضات المغيبة في حقيقتها الجوهرية: أي ما هو مبرر العدالة الإلهية إذا كان الإله خلق البشر واختار بينهم أنبياء بصورة انتقائية؛ مثلاً لماذا عيسى عليه السلام نبي والآخرين من الناس ليسوا أنبياء؟ ولماذا اختار بعض البشر أن يولدوا في القرن العشرين وآخرين في القرن السابع عشر؟ ولماذا اختارك أنت بالذات ذكر وآخر اختاره أنثى؟ لماذا اختار للبشر ديانات والحيوانات والأشجار وباقي المخلوقات لم يخلق لها ديانات؟ ولماذا لم يدع حرية الاختيار للمخلوقات أن تخرج للحياة وتختار جنسها وجنسيتها ولونها وطولها وجيناتها الوراثية وصحتها الفطرية وطبقة صوتها ومدى جمالها؟ فهناك شجرة إذا كان لها حرية الاختيار يمكن أن تختار أن لا تكون شجرة ولا تكون تحديداً مزروعة في أكرا عاصمة غانا مثلاً! كان يمكن أن تختار أن تكون وردة أو أسد أو إنسان مولود في فيتنام!

وإذا كان هناك مبرر للعدالة الإلهية لأن من يُخلق (فقير) هو اختبار لمدى صبره وتبشيره بدخول الجنة ومن يُخلق (غني) هو اختبار لتصرفه في ماله (في أي شيء

يصرفه؟) ومن يُخلق معاق هو اختبار كذلك لمدى صبره أو إذا لم يخلق معاق كان يمكن أن يرتكب بصحته بعض الفظائع... فهذا لا يمكن أن يكون مبرراً إذا لم تكن هناك حرية اختيار لأن البعض إذا كانت له حرية اختيار يمكن أن لا يختار ليُختبر (بالفقر) أو العكس!؟ ففي حياتنا اليومية إذا كان هناك شخص يمتلك كتاب وهاتف وسيارة ومنحها للآخرين دون أن يضع لهم حرية الاختيار فهذا يسمى (عدم عدالة) فهناك من لا يرغب بأن يختار الهاتف والعكس غيره قد لا يرغب بأن يختار الكتاب أو السيارة!

الحقيقة هذه أسئلة إجابتها تقع ضمن دائرة ما يمكن تسميته (بالحقائق الغيبية) التي مهما بحثت وبذلت من مجهود لن تجد لها إجابات مقنعة للعقل البشري وفي كل الديانات التي على وجه الأرض! فأي محاولة للإجابة هي محاولة فاشلة هدفها (التماسك) فالبشرية تحتاج إلى (إله) عادل (تتماسك) به من هواجسها أو مخاوفها وإن لم تجده سوف تتصوره بمخيلتها ككثير من المجتمعات البشرية التي أنتجت آلهة بمخيلتها؛ فالهندسة البشرية المدهشة وهندسة الأنهار والبحار والمحيطات والطبيعة والكون عموماً بكل ما فيه من غلاف جوي يوازن درجات الحرارة في الأرض وإلى آخره تفترض أن هنالك إله موجود هو المهندس للكون؛ أي من منطلق كل شيء حيوي له حركية هو من إنتاج مهندس له يمكن أن يفهم من منطلقهُ الوجود الإلهي.

أما إذا عدنا إلى مفهوم (مرحلة ما بعد الجنون) يمكن أن نقول أن الجنون هو الشيء المماثل للفلسفة (الخروج عن المألوف/ التفكير بشكل غير نمطي) وهو في حد ذاته شيء نمطي؛ أي هناك صور نمطية للجنون، أما (مرحلة ما بعد الجنون) يمكن أن نعرفها بمرحلة التفكير والفعل لما هو غير متوقع أو غير مرسوم في الخيال (أي ما يمكن لأحد أن يتخيله فكراً وفعلاً) فالمجانين هم الذين وصلوا إلى حالة الوعي والإدراك والشك واختيار أساليب فنية وحياتية تتناقض أو تتمرد على طبيعة أو كلاسيكية الفن والحياة في مألوفيتها، كنموذج لـ(**Les clochardes**) أو ما يمكن تسميتهم عند العامة بـ(المشردين، الصعاليك، المتسكعين، السكارة) أو ما أسميهم من ترجمتي الخاصة بـ(فلاسفة الفعل) إن عرفنا الفلسفة أنها كل ما هو مختلف أو غير مألوف "تدخينك لسيجارة قبل أن تُكتشف كسيجارة هي فعل فلسفي" أي الذين يختارون عيش الحياة بأسلوب فلسفي أو بوعي مجنون أو جنون واعي .. وهم مجموعات (ثرية) لكنها اختارت العيش بأساليب مناهضة لمألوفية الحياة عند العامة، حيث تتواجد هذه الشريحة الاجتماعية بأغلبية كبيرة في (فرنسا) وبينهم أطباء وعلماء وشعراء وموسيقيين وفنانين تشكيلين، يمثلون تيار فلسفي – الحياة في فلسفتها المعيشية – أشبه بحركة (الهيبية) أو (الخنفوس) التي نشأت في الولايات المتحدة

الأمريكية في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين أو (البوهيمية) في باريس منتصف القرن التاسع عشر..

أي التفكير فلسفياً وسريالياً ورمزياً عبر الفن في فلسفة وأنسنة و(فكرنت) أو (عقلنة) الأشياء هو تفكير (جنوني) وليس تفكير يمكن وضعه في خانة (ما بعد الجنون) لأنه شيء نمطي أو له وجود مسبق في الذاكرة أو فكر مجرب. أما الذين وصلوا لـ(مرحلة ما بعد الجنون) هم الذين فكروا وفعلوا أشياء خارج إطار (الوعي الإنساني) .. فيمكن أن نسمي الأشياء المبتكرة أو المكتشفة في زمنها هي (مرحلة ما بعد الجنون) لكن بعد مألوفيتها أو بعد أن أصبحت شيء من المعروف الذي وضع له مكانة في الذاكرة البشرية، يمكن إرجاعها لخانة (الجنون)، كنموذج للذي فكر في أن هنالك مادة خام اطلق عليها اسم (كولتان) تستخدم في صناعة الطائرات وأجهزة الهاتف والحواسيب، إذن (مرحلة ما بعد الجنون) هي مرحلة غير ثابتة بمجرد أن أصبحت الاكتشافات أو الأفكار والأفعال فيها أشياء مألوفة!

بشكل أعمق، كل شيء موجود حولنا، بما فيه هذه (الكتابة) كتابة المقال والشعر والرواية والقصة، عزف الموسيقى، التمثيل الدرامي والسينمائي، حضورنا لندوة ثقافية، مشاهدتنا لمباراة كرة قدم، اجتماعنا حول تأسيس دستور حديث

للدولة، فكرتنا نفسها حول مفهوم الدولة..الخ هي كلها أشياء وجدت بفعل (الوعي) فإن لم يكون هنالك حالة (وعي) لما تشكلت تلك الأشياء (لما التقينا في صفحات هذا الكُتاب) ، أي كل نشاط نقوم به هو نشاط (الوعي) الذي فينا، إذن الشيء الواضح أن هنالك أشياء يمكن أن نجتمع حولها غير موجودة في (الوعي الإنساني) وهذه هي المرحلة التي نسميها (بمرحلة ما بعد الجنون) أو ما يمكن تسميتها كذلك بمرحلة (ما بعد الوعي)!.

وكنموذج لشخصيات مثلت (مرحلة ما بعد الجنون) يمكن الإشارة إلى عازف الكمان الإيطالي (نيكولو باغانيني) ٢٧ أكتوبر ١٧٨٢م – ٢٧ مايو ١٨٤٠م الذي يمثل (مرحلة ما بعد الجنون) : فهو إنسان يعيش الحياة بمألوفية من عشقه للنساء وارتشاف الخمور و، لكنه لقب بـ(عازف الشيطان) أي يقال أنه باع روحه للشيطان أو أن الشيطان لقنه دروس فكنموذج إلى عازف الكمان الإيطالي (نيكولو باغانيني) الذي يمثل (مرحلة ما بعد الجنون) : فهو إنسان يعيش الحياة بمألوفية من عشقه للنساء وارتشاف الخمور و، لكنه لقب بـ(عازف الشيطان) أي يقال أنه باع روحه للشيطان أو أن الشيطان لقنه دروس في العزف الموسيقي لآلة الكمان على هامش السجن الذي دخله خلال الفترة ما بين عامي ١٨١٠م إلى ١٨١٣م – وتلك خرافة أو أسطورة – تعكس أن موسيقى (باغانيني) ليست من صنع البشر (أي أنه وصل إلى مرحلة من الخيال الموسيقى لا أحد من

البشر يستطع الوصول إليها)!ي العزف الموسيقي لآلة الكمان على هامش السجن الذي دخله خلال الفترة ما بين عامي ١٨١٠م إلى ١٨١٣م – وتلك خرافة أو أسطورة – تعكس أن موسيقى (باغانيني) ليست من صنع البشر (أي أنه وصل إلى مرحلة من الخيال الموسيقى لا أحد من البشر يستطع الوصول إليها)!

أما المثقف والشاعر والمترجم العبقري (عبد الرحيم أبو ذكرى) ١٩٤٣م – ٥ نوفمبر ١٩٨٩م الذي كثير من المثقفين لا يعرفونه، هو من ما أسميهم (فلاسفة الفعل) أو الذين تخطوا مرحلة الجنون وليسوا المجانين في موضع جنونهم؛ فالمجانين في تعريفهم الكلاسيكي كما عرفتهم العلوم الطبية (لا ينتحرون) كما فعل (أبو الذكرى) الذي أوصلته المعرفة والعبقرية الفكرية إلى (عبثية الحياة) فاختار أن يجرب عالم آخر تصوره في مخيلته وإن كان عالم (عدمي) لا شيء! ذلك حينا انتحر بالقفز من نافذة شقته بالطابق الثالث عشر لمبنى السكن الطلابي في أكاديمية العلوم السوفييتية وهو انتحار يمكن تعريفه كتعبير ثوري ناتج من صراع فكري شاهد فيه (أبو الذكرى) العالم بعين ثالثة أو زوايا ناتجة من العمق الفكري والمعرفي. وتلك سيرة أخرى كتبها (مجهول) حول عبد الرحيم أبو الذكرى، نشرت بمركز الاتحاد للأخبار:

عاش في الآفاق وانتحر على الرصيف

سماواتٌ غريبة ووطنٌ حزين في تجربة الشاعر السوداني أبو ذكرى على طريقة المتفردين الكبار من الشعراء في العالم، ومثل نَجْمٍ في السموات البعيدة، لمع نجم الشاعر السوداني الكبير الراحل عبد الرحيم أبو ذكرى وأشعل الدنيا من حوله ـ شعراً جميلاً ـ يناقش قضايا الإنسان وعوالمه، ويعبّر عن نفسٍ شاعرية رقيقة ومرهفة، تهوى الآفاق، مقدماً الجديد على ساحة الخريطة الشعرية في السودان، ومثيراً دهشة جمهور المثقفين بإبحاره العميق في سماء الأدب العالمي والروسي في أوج عظمته، وتقديمه لترجمات كاملة ورائعة لكبار الأدباء والشعراء. وعلى طريقة الكبار، وفي مساء ١٦ أكتوبر ١٩٨٩م، وبعد أن أكمل نيله لدرجة الدكتوراه في فقه اللغة، أتى أبو ذكرى بآخر مفاجآته لتكون داويةً بالفعل هذه المرة، وبأعلى صوت، حيث قفز من نافذة شقته في الطابق الثالث عشر لمبنى السكن الطلابي في أكاديمية العلوم السوفييتية، ليطيح جسده الهزيل فيفاجئ المارة في الشارع، وينتحر محتضناً الأرض التي أحبها، وكتب لها الشعر غزيراً، وبكى بمرارةٍ لعذابها، معلناً نهايةً حزينة لأحد العباقرة الذين أنجبتهم حواء الشعر والثقافة في السودان ولم تسعد به كثيراً. وربما للمفارقة، أن شاعرنا اختار أو رضي باختيار (أبو ذكرى) سم شهرة له لتأكده من تملكه ناصية الشعر والأدب، ليفتقده السودانيون سريعاً بعد أن كانوا في انتظاره، وأصدقاؤه الذين

كانوا يتنبأون له بمستقبلٍ عريض، ويصبح بموهبته الفذةّ مجرد ذكرى! الشفيع عمر حسنين على الرغم من غيابه الطويل عن بلاده حتى موته، وجد عبدالرحيم أحمد عبدالرحيم ـ وهذا هو اسمه الحقيقي ـ المولود في قرية تنقاسي السوق ـ مركز مروي عام ١٩٤٣م، وجد بعض الحظ في الانتشار، خاصةً بعد قصته الحزينة المدويّة، وهو يمثل أشهر ثلاثي أدبي انتحر في السودان، حيث سبقه أديب مرموق وآخر شاعر في إنهاء حياتيهما بأنفسهما. وتعرف عليه الشباب أكثر بعد إبداع المطرب الراحل مصطفى سيد أحمد في تلحين قصيدته الرائعة "الرحيل في الليل"، وغنّاها وهي عنوان ديوانه الوحيد المنشور والصادر في حقبة السبعينيات، ويتداول كل من سمع الأغنية الحزينة قصته، ويتحسر على موهبته التي ضاعت. يقول (أبو ذكرى) في مقدمة القصيدة: أيها الرَاِحُل في الليل وحيّداً ضِائعاً مُنفرِداً أمسُ زارتني بَواكّيُر الخريفْ غَسَلتْني بالُثلوجْ وبإشراق المروجْ أيها الراحلُ في الليلِ وحيداً انتظرني فأنا أذهبُ في الليل وحيداً ظهر نبوغ أبو ذكرى منذ المرحلة الثانوية، عندما فازت قصيدته "من طقت الكبرى" بكأس الشعر، وتم اختيارها النشيد الرسمي لمدرسة "خورطقت" الثانوية إحدى أشهر المدارس القومية في ذلك الوقت. في العاصمة الروسية موسكو، انفتح أبو ذكرى على الأدب الروسي الذي كان يعيش فترة ذهبية، فقرأ عشرات الكتب ودواوين الشعر، وترجم أروع الأعمال

لعدد كبير من أهم المثقفين الروس، منهم: مايكوفسكي والذي ربط بعض الباحثين بينه وبين (أبو ذكرى) ، ونوادر دمبارزي، وماريا فيلسوفاً، وسيرجي ستنن، وباسترناك، وبوشكين، وتشيخوف. ساهم أبو ذكرى بعد عودته الأولى من روسيا في عام ١٩٧٣م، حيث ذهب إلى روسيا للدراسة بعد أن هجر كلية الآداب بجامعة الخرطوم، ورفض دراسة الفلكلور في رومانيا، في تأسيس جامعة أبادماك الثقافية، كما عمل سكرتيراً لتحرير مجلة "الثقافة السودانية" لمدة عامين (٧٦ – ١٩٧٧م)، والتي لعبت دوراً كبيراً في السبعينيات في تواصل الأدباء مع بعضهم بعضاً، ومع الأدب العالمي، وساهمت في نشر وإبراز إنتاج الكثيرين ممن واصلوا بعدها رحلة الإبداع في شتى الحقول. في تلك الفترة، اجتهد أبو ذكرى كثيراً، فإلى جانب المجلة، كان يكتب في ملف صحيفة "الأيام" الثقافي، ومحكمة الأيام الأدبية، ومجلة الخرطوم، ومجلة الشعر المصري، ومجلة الهلال المصرية، بالإضافة إلى عمله أستاذاً غير متفرغ بجامعة الخرطوم. بعد فترةٍ حافلة بالإنتاج والحركة الواسعة، عاد أبو ذكرى مرة أخرى إلى روسيا ليلتحق بمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، حيث نال درجة الدكتوراه في فقه اللغة. بعد رحيله، حاول عدد من أصدقائه الكتابة عنه، إلا أن قلة المعلومات عنه، وحرقه أغلب ما كتبه قبل رحيله بيومٍ واحد، حيث كان يعاني حساسية غريبة وتدهوراً في حالته النفسية، حال دون تسليط الضوء الكافي

عليه، ولكن أجمل ما كتب عنه، ما سطره قلم صديقه ورفيق دربه الدكتور كمال الجزولي، حيث كتب عنه مقالاً رائعاً في الصحف السودانية بعنوان: "نهاية العالم ليست خلف النافذة"، وهي جملة قالها روسي عجوز لينهي بها مشادة حدثت لـ(أبو ذكرى) والجزولي في أحد مسارح موسكو، وللمفارقة أن نهاية (أبو ذكرى) كانت خلف نافذته. كما كتب عنه كتاباً بعنوان: "تذكارية في جدل التوهج والانتحار"، وكذلك أنجز الكاتب محمد أحمد يحيى كتاباً عنه حوى دراسة عن الانتحار وبعض الوثائق والأشعار. أثارت أشعار أبو ذكرى عند بداية نشرها الكثير من الدهشة لدى الجمهور، حيث لم يتعود الناس على عبارات وكلمات مثل: سماءٌ غريبة، مركبات الشروق التي تتحرك بين السهول الغريبة، السهول الفساح، الدنيا الغريقة، الطيور الكبيرة، الطيور الجسورة، الطيور النازحة، الشمس الباردة البلورية، الرشاش السماوي، البنايات المعوجة القديمة، الرجال ذوو العيون القاتلة، أحاسيس العصور، القراصنة الكبار، الشبابيك الحديدية، الأنفس اليابسة المثقلة والمعطوبة، وغيرها من التعبيرات الجديدة التي تعكس تأثر أبو ذكرى بالشعراء الروس الكبار، وتوقه للجديد والغريب من ألفاظ اللغة. خاطب أبو ذكرى في أشعاره الوطن ناثراً حساسيته المفرطة تجاهه، وأمنياته الصداقة وتفكيره الدائم فيه، وفي واقعه الحزين، يقول في قصيدة "سهرة في الشارع": وحين تصرصر الأبوابُ، حين تضمني الحجرة

أفكرُ في الزمانِ المرّ والإنسان وفي وطني الحزين الدامِعُ العينينِ إلا من أزيزْ النارِ تحدث أبو ذكرى عن الموت حديث العارف المتفلسف، فهو يصف الموت بدقة، ويسقط عليه كل حركة الكون والأشياء ليجعله واقعاً معاشاً بين الناس، يقول في قصيدة "في الفاجعة": لحظتها قلتُ: أموتُ هنا عيناكِ لدي كفنٌ من عينيكِ أشربُ طعم الموت العالقْ وفي أفقِ الأجفان، أمتعن فيك وأنصتُ: أسمعُ شخشخة الأكفانْ تخصص أبوذ كرى في الحديث عن النفس التواقة إلى المجهول، والأعالي، وقدم صوراً رائعة عن الصراع النفسي الذي يعيشه الشخص الباحث عن الأعالي، وغير الراضي عن واقعه، يقول في قصيدته "ليس عن الحب": لِي سماءٌ غريبةٌ، أتأملها في الخفاءْ وأهدهدها ساهماً في المساءْ وأغني لها أجمل الأغنياتْ، بصوتي الأجشْ الذي لا يجيدُ الغناءْ كتب أبو ذكرى قصيدة رائعة في رثاء العراقي بدر شاكر السياب بعنوان "موت الغريب على الخليج" يقول فيها: وَحِيداً في الخليج تجولت قدماكْ وكان البحرُ يصخبُ في المدى والريحُ لا تغشاكْ ترددت مفردات الحزن والأسى بمعانيها المتعددة، إذ لا تخلو قصيدةٌ له من ذلك، ومن أوصافٍ دقيقةٍ للإنسان حين تسكنه الوحدة والوحشة والغربة، ويصبح لا رفيق، يقول أبو ذكرى في قصيدة "غربة"، والتي تعتبر توصيفاً دقيقاً لما ظل يعانيه: من بلدِ الغربة والوحدة في الزحامْ يريد أن يهربْ، لكن كيفْ يريد أن يبّلهُ كالقمح والأشجار، مطر الخريفْ يريد، ولكن

بينه وبينها ينحفرُ الأخدودْ وتشمخُ القاراتُ والبحارُ والحدودْ بقي أن نقول، إن أبو ذكرى عاش حياته في صدقٍ كاملٍ مع نفسه، ومع الآخرين الذين يشهدون له برهافة الحسّ والأدب الجمّ، وفي ذات الوقت أبقى على علاقاته الرمزية مع الكون بأسره، تلهمه كل المخلوقات والكائنات، والموت نفسه، وتدعوه جميعها إلى قول الشعر والرحيل إليها في الأعالي والسماوات البعيدة، بعيداً عن نفاق الأرض وأهلها. رحل عبد الرحيم أبو ذكرى صادقاً حتى في موته، كما عاش، وانصاع لنبوءة قصيدته "الحصار" ليبقى على صدقه حتى مع كلماته التي خرجت من حناياه المرهفة الرقيقة، تبث شوقه وخوفه ولوعته، يقول في ختام القصيدة: مثل الخراباتِ القديمة، رحنا نسير مبعدين نتتبع الخالي من الطرقاتِ والظلّ المعارْ وهنا نموتُ على الرصيفْ بلا صديقْ من غير دارْ من غير نارْ غير المساء والبرد والعطش الغزير غير الحِصارْ.

كما لا يمكنني تجاوز أو تجاهل تلك المرأة (المجهولة) التي تعيش في الظلام وهي تتخطى المفهوم النمطي للجنون بمقولة "المجنون يتصور أشياء لا يتصورها الناس الطبيعيون فهو ليس مجنون إذن": أي من ذاكرتي القريبة التي أنجبتها (مصر) حينا كنت أتمشى في إحدى شوارع مدينة (الزقازيق) عاصمة محافظة الشرقية، صادف – مع العلم لا يوجد شيء أسمه صدفة (الصدفة تعني نفي الإله) – أن لمحت (كافي) جميل عليه صور فتوغرافية إلى (أم كلثوم) و(عبد

الحليم حافظ) ولوحات عن الحضارة المصرية ولوحات أخرى تتميز بالعمق الفني .. فدخلت إلى (الكافي) بدافع حب الاستطلاع الفني ومحبتي للفن، لأختار مقعد بعيد على الركن .. كانت بالقرب منه تجلس (امرأة أربعينية) ترتدي نظارات طبية وفي يدها مرجع علمي ضخم يتصور مورفولوجياً أنها عالمة فلك أو فيزياء .. فدقائق معدودة حتى أسمع صوتها (العالِ) وهي تقرأ في المرجع بلكنة إنجليزية مسرحية كوميدية أقرب للكنة كوميديا المسرح الإنجليزي، ثم بين الحين والآخر كانت تقول بصوت (عالِ) – مسموع حتى لمن هم خارج (الكافي) – وبصورة لحنية موسيقية "الألم، الألم، الألم" فتأكد لي حينها – ولو كل ما شاهدها لظن من الوهلة الأولى أنها (مجنونة) – أن هذه المرأة من نوعية الـفئات الاجتماعية النادرة الوجود في هذا العالم؛ التي تعيش الحياة (بجنون واعي أو وعي مجنون) أو من نوعية شخصية (كريستوفر مكندليز) في فيلم (**Into the Wild**) .. ولعل ذلك ما دفعني أن أتعرف عليها؛ فسألت صاحب (الكافي) عن من تكون هذه المرأة!؟ فقال لي هذه ((دكتورة)) تأتي إلى هنا يومياً .. فسرعان ما أكمل حديثه حملت أغراضي من الطاولة وذهبت للجلوس معها .. ثم وجدت مدخلاً للحديث معها بالسؤال عن "اسم المرجع الذي تقرأ فيه!؟" فأتذكر أنها ردت لي بسؤال وأسلوب حاسم يعبر عن أنها امرأة طبيعية وبعقل سليم "ليه وبفيدك بي إيه!؟" فقلت لها "أنا مهتم بالقراءة

والكتابة" .. لتصمت لثواني ثم تتحدث بصوت (عالٍ) وباستفاضة عن علم (الأنسجة) وعن طبيعة الإنسان ووجوده في الكون وعن النظرية (الداروينية) بمعرفة كبيرة وتفكير مدهش في الربط ما بين النظرية والدين الإسلامي .. فقلت لها أنت دكتورة إذن؟ فصمتت كعادتها لثواني ثم قالت لي "أنا أدرس هستولوجي" أي علم الأنسجة أو دراسة التشريح المجهري للخلايا وأنسجة النباتات والحيوانات!

المهم بعد حوار طويل امتد لأكثر من ساعتين، تحدثت فيه بمعرفة كبيرة تعبر عن أنها مثقفة من طينة الأفذاذ، عن الدولة العباسية وشعراء الدولة العباسية (أبو الطيب المتنبي، أبو نواس، الشافعي، ابن الرومي..الخ) ، عن ابن خلدون وعلم الاجتماع والنفس وعن أن والدها كان يمتلك مكتبة ضخمة في علم الاجتماع والنفس، عن الحضارة المصرية، عن الحروب واللاجئين، عن خلقية البشر وتأسيس الحضارات العربية، عن الغرب ومركزية الغرب العلمية، عن تأسيس الجامعات في مصر، عن جامعة الأزهر والقاهرة و(الزقازيق)، عن جمال عبد الناصر، وأحمد زويل عالم الكيمياء (الذي من لغة جسدها عرفت أنه ليس بتلك العظمة المتصورة)!..الخ .. فاكتشفت حينها وبعد كل تلك المعرفة أنها لم تدرس جامعة؛ ذلك لما فهمته من قولها بعد أن سألتها "في أي جامعة درست؟" فأجابت لي بإجابة غير مباشرة أن العولمة أتاحت للجميع أن يدرس، وهي

تدرس لاكتشاف الإنسان... وكلام في منتصف الكلام غريب ومدهش عن أن ما يجري في السودان الآن هو في جوهره (صراعات اجتماعية) وليست حرب بمعنى حرب!

فوق كل ذلك، حينا طلبت منها أن تعرفني باسمها وأن أخذ صورة للمرجع؟ رفضت تماماً (بل أنها غطت غلاف المرجع بحقيبتها)! لكي لا أعرف عنوان المرجع .. بل قالت لي "لا يهم أن تعرفني ولا أهم أنا أن أعرفك!" ثم ذهبت في حالها وذهبت أنا الآخر في حالي!

****

في ذات السياق (الصراعات البشرية في إطار الجريمة) يمكن أن نتطرق إلى دراسة ما أسميناه من عنونة فرعية:

أنثروبولوجيا الجريمة وعلاقتها بالحروب:

حيث تعرف الانثروبولوجيا الإجراميّة (**Criminal Anthropology**) على أنها أحد العلوم الجنائية الذي يُعنى بدراسة الطبيعة البشرية بشكل عام، وسلوك المجرمين بشكل خاص. فمن هذا المنطلق يمكن أن نقول الإنسان كائن

مُتأَصِّل فيه الشر، فالأديان والمعرفة والعلوم والفنون أتت لضبط الإنسان أخلاقياً، فالطبيعة الخلقية للإنسان أو الغرائزية هي ما تدفعه لارتكاب الجرائم؛ ذلك إذا اعتبرنا أن عدم امتلاكه للوسائل المادية لكسب الأكل والشرب والعلاج والرفاهية هي ما تدفعه لارتكاب الجرائم بدافع الغرائز أو القوة الداخلية البيولوجية؛ أي بصورة أعمق وكمثال: إذا وضعنا طفل في غرفة ومنذ عمره سنة واحدة (فصلناه عن العالم الخارجي) وكنا نمده بشكل غير مباشر بالأكل والشرب وبعض وسائل الرفاهية وقمنا في لحظة ما وفي مرحلة عمرية محددة أو بعد بلوغه سن المراهقة حرمناه من تلك الأشياء، ثم قمنا بإطلاق حريته في الشارع، أول ما سوف يفعله ذلك الشخص – بدافع الغريزة الإنسانية

(الجوع/ العطش/ الشهوة الجنسية) – لإعادة تلك الأشياء ولإشباع رغبته الجنسية أو الأصح تفريغ طاقته الجنسية هو (النهب) وليست السرقة، والتحرش كذلك في الحالة الجنسية .. ذلك لأنه إنسان (لا يملك ذاكرة) أو معرفة بطبيعة الحياة والأشياء، فالسرقة تحديداً تحتاج إلى (ذاكرة) هي ما تمثل أصل الذكاء (لا ذكاء بدون ذاكرة) .. وهنا السؤال الإعتراضي الذي يفرض نفسه هو: إذا كان لا يملك (ذاكرة) فإذن من الطبيعي أنه سوف يخاف من كل ما هو غريب أو غير مألوف!؟ لكن عكس ذلك تماماً "دافع غريزة الجوع والعطش والجنس سوف تطغى على الخوف إذا اعتبرنا أنه حقاً سوف يخاف" لكن في الحقيقة أنه في هذه الحالة التي يفتقد فيها (للذاكرة) أو (المعرفة المسبقة) لن يخاف .. فالإنسان يخاف من المعرفة نفسها؛ يخاف من أن هنالك عذاب قبر وعذاب في الحياة الأخرى لذلك هو يمارس العبادة، يخاف من الشيطان ومن رؤية صورة الشيطان إذا تمثل أمامه لأن في وعيه أو (ذاكرته) أو (معرفته) هناك وعي وإدراك بأن الشيطان كائن مؤذي!

أي لتأكيد ذلك، أن الطفل في صغره لا يخاف من أية شيء، من الممكن أن يحمل في يده عقرب أو ثعبان ويلعب به، لكن حينا يبلغ حالة الوعي أو تصبح له ذاكرة ومعرفة سوف يخاف من كل ما هو مؤذي له!. فالإنسان في الأصل هو كائن حيواني، لكن حالة الوعي التي يكتسبها في مرحلة عمرية محددة عبر المعارف

والعلوم هي ما تفصله عن الحيوان، وهذا ليست مؤشر يؤكد أن كل الذين يمتلكون الوعي والإدراك لا يمكن أن يكونوا (مجرمين) بل يمكن أن يكونوا مجرمين أخطر من (غيرهم في حالة اللاوعي) فجرائهم قد تكون من الجرائم الكبرى التي تسبب أضرار كبيرة وعلى حساب مجتمع أو أمة بأكملها، فهذه الفئة دائماً ما تنشط في الجرائم الناعمة، كجريمة غسيل الأموال وتجارة العملة وصناعة الأوبئة والكوارث (التأثير في الطبيعة) والمخططات الاستراتيجية (صناعة القرار) للإبادات الجماعية المرتكبة بآلية الدولة والمليشيات المصطنعة من دول ومحاور سياسية دولية. فالحقيقة أن كل الصراعات التي تقودنا إلى ارتكاب الجرائم وصناعة مجرمين بيننا، بخلاف الغرائز الإنسانية، هي المعايير التي نضعها للحياة بيننا كمجتمعات؛ فمن الممكن أن تكون إلى طفل (فقير) لعبة مثل (الليدو) رخيصة الثمن وفي آن هي جميلة ومسلية، لكن بحسب معايير المجتمع الحديث الذي يعيش في ظل العولمة هو يفضل أن يلعب (البلايستيشن) جهاز غالي السعر ويخص الطبقة البرجوازية والأرستقراطية، وهو الأمر الذي قد يخلق منه إنسان (مجرم) إذا فشل والده الفقير في شراء جهاز (بلايستيشن) .. فهنا المعايير الاجتماعية هي بشكل جذري ما تساهم في خلق مجرمين بيننا، فالإجرام لا يقتصر على حالات الدوافع الغريزية وحدها، بل هناك دوافع اجتماعية أو المعايير الاجتماعية قد تدفعك إلى (حب السلطة) كنموذج

للسياسي، قد تدفعه إلى خيانة وبيع وطن كامل، وكنموذج للعادات والتقاليد التي تقوم بها مؤسسة الزواج، فمعايير الزواج مثلاً عند الشعوب العربية هي معايير مادية – وهنا ما قد تتوالد (الجريمة) بارتكاب الزنا أو (الجرائم) المادية التي تمكن صاحبها من الزواج – ذلك عكس المعايير الأوروبية للزواج هي تنطلق من مبدأ الحب والجمال والتوافق الفكري، وهو أمر نسبي لأن هنالك حالات شذوذ متمردة على طبيعة المجتمع أو تضع الماديات كمعيار أولي للارتباط العاطفي!.

كذلك الجوانب البيولوجية قد تمثل دافع (للإجرام) ، كالغباء والجهل كذلك الذي يمكن أن ينتج (مجرمين) في نوعية الجريمة (الخشنة/ المتوحشة) كالقتل والاغتصاب والتعذيب، وهذا الصنف من البشر هم دائماً المستهدفين لتوظيفهم بين المؤسسات العسكرية والأمنية والمليشيات بالأخص، فالعسكري أو رجل الأمن هو في العادة إنسان غبي وجاهل وفاقد للتربية السليمة وأجوف العقل، لذلك الآليات الرئيسية التي تصنع الحروب هي تلك الفئات الاجتماعية التي تستخدم كآليات بشرية في خدمة الأجندة السياسية للنخبة السياسية والعسكرية التي يمكن أن نضعها في خانة (المجرمين الأذكياء) الذين ينشطون في (الجريمة الناعمة) ، ذلك أكثر من الآليات الحربية نفسها المتمثلة لنا في (الأسلحة النارية) ؛ فلا يمكن أن نجد مثقفين أو أدمغة علمية يحملون السلاح

لصالح المؤسسة العسكرية والأمنية للدولة، إلا في حالات نادرة واستثنائية (إن كان لكل قاعدة شواذ) حيث تكمن في دوافعهم لحمل السلاح بسبب الفقر أو الشعور بالنقص رغم ثقافتهم وعلميتهم، لكن يمكن أن نجد نماذج مثقفة ومتعلمة تحمل السلاح لقضايا إنسانية مستحق النضال فيها كنموذج إلى شخصية تشي جيفارا (**Che Guevara**) ١٩٢٨م – ١٩٦٧م ودكتور جون قرنق دي مابيور (**John Garang de Mabior**) ١٩٤٥م – ٢٠٠٥م وغيرهم من الشخصيات النضالية الأخرى، وهي شخصيات الغالب منها لا يخرج من دائرة أنه يمثل وكيل للقوة الإمبريالية أو للاستعمار في شكله الحديث، فالمستعمرات الغربية هي من صنعت تلك النخب السياسية والعسكرية ومن مولتها مادياً لخدمة أجندتها الاستعمارية، وهو أمر يظهر ما يمكن تسميته بـ(هرمية الجريمة/ المنظومة الإجرامية) التي يقف أعلى هرمها الغرب الذي يعمل على هندسة الحروب والانقلابات العسكرية وتشكيل أنظمة الحكم في العالم الثالث عبر تلك النخب التي صنعها أكاديمياً في مؤسسته العلمية أو في المؤسسات التي أسسها في مستعمراته كنموذج لجامعة الخرطوم التي أخرجت نخب تحارب في وطنها بالوكالة أو تمثل دور الوكيل الاستعماري!.

أيضاً المعايير الاجتماعية والعلمية كذلك هي ما جعلت تحديد الكشف عن المجرمين من الحيثية المورفولوجية (الشكلية) والثقافية، ففي علم النفس الجنائي تشير بعض الدراسات العلمية إلى أن المجرمين أناس نحاف وطوال القامة وغيرها من الصفات الأخرى، حيث يقول عالم الجريمة الايطالي (سيزار لومبروزو – **Cesare Lombroso**): بشكل عام يشتهر اللصوص بوجوههم التعبيرية وبراعتهم اليدوية، وعيونهم المتجولة الصغيرة التي غالباً ما تكون مائلة الشكل، وحواجب كثيفة وقريبة، وأنوف مشوهة أو مضغوطة، ولحية رقيقة، وجبهة مائلة، أما المغتصبون فغالباً ما يكون لديهم آذان إبريقية ولديهم عيون لامعة وتورم بالشفاه وبالجفون.

أما في دراسة الجوانب الثقافية، يختلف تحديد المجرمين من ثقافة إلى أخرى، كمثال إلى أن المجرمين في أمريكا وأمريكا اللاتينية الذين ينشطون في مجال (الجريمة الخشنة/ المتوحشة) يعرفون (بالوشوم) واستماعهم موسيقياً لموسيقى الراب، عكس المجرمين من ثقافات أخرى، كمثال في السودان، المجرمين يتميزون بالنظارات السوداء وسواقة الدراجات النارية ولبس الختم ذات الأحجام الكبيرة ووضع المفاتيح على (كمر البنطال) ، والاستماع إلى موسيقى (القونات) إن لم يكن إلى موسيقى محمود عبد العزيز!

أما في دراسة علم الإجرام تشير (نظرية لومبروزو - **Lombroso's theory**) إلى (سيزار لومبروزو - **Cesare Lombroso**) إلى تقسيم المجرمين إلى خمسة أصناف هم:

١- المجرم المجنون: وهو الشخص المختل عقلياً الذي لا يميز بين الشر والخير، وفي هذا الجانب قسم (لومبروزو) المجرمين المصابين بأمراض عقلية إلى ثلاثة أقسام هم: المجرم الصرعي، والمجرم السيكوباتي، والمجرم المجنون.

٢- المجرم بالعادة: وهو المصاب بنقص عقلي وضعف خلقي، فإذا صادف ظروفاً اجتماعية سيئة كالبطالة، أو إدمان الخمور، فإنَّه يعتاد على ارتكاب الجرائم، وهذا الصنف من المجرمين يعتبر مصدراً مستمراً للإجرام، بسبب طبيعتهم النفسية المستعدة دوماً لارتكاب المزيد من الجرائم وهناك شبه اجماع في الفقه على أن الفئات الثلاث السابقة تمثل درجة متقدمة من الخطورة الإجرامية تحتاج إلى أفراد تدابير وقائية خاصة لكل منها لمنع استشراء عدواها للأخرين.

٣- المجرم بالصدفة: وهو المقصود به الذي تؤثر فيه الخمور والمخدرات، فيرتكب جرائمه نتيجة (السكر) أو ذهاب العقل.

٤- المجرم بالعاطفة: يختلف تماماً هذا النوع عن زميله المجرم بالفطرة أو بالولادة، حيث يتميز بمجموعة من الصفات النبيلة، ويقترف جرائمه نتيجة

لعاطفته المرهفة والمتأرجحة والتي تتأثر بأسباب متعددة أهمها الغيرة والحسد والحماس والاندفاع والشذوذ عن الشرف والأخلاق والحب، ويمكن لهذا الصنف العاطفي أن يرتكب جريمة القتل ضد شخص قام بالإساءة إلى أسرته أو شخص خان ثقته ويرى البعض أنَّه يمكن أن يندرج تحت مجموعة المجرم والمصاب بالهيستريا، وغالباً ما يرتكب هذا الشخص الجرائم السياسية.

الحروب كما أكدنا أنها يصنعها المجرمين (الساسة) هي بالمقابل تصنع مجرمين لم يكونوا مجرمين بالأصل أو ما يمكن أن نسميهم بـ(المجرمين المتحولين) أي افرازات الحرب وأثرها النفسي والمادي حولتهم لمجرمين، فالحرب تدمر البنية التحتية والاقتصاد وتؤثر على الحياة المعيشية والجوانب النفسية التي تؤدي إلى الاكتئاب الذي يشكل واحدة من دوافع الجريمة، خصوصاً الحروب التي تغيب فيها الأخلاقيات والقوانين الحربية كنموذج للحرب السودانية (١٥ أبريل ٢٠٢٣م) التي ظهرت فيها جرائم تعدي على الممتلكات الخاصة وعلى الأشخاص مثل نهب البيوت والسيارات والهواتف والذهب والأماكن التجارية للمواطنين والاغتصاب والقتل على أساس عرقي .. هي ما تصنع مجرمين يندفعون نحو الجريمة بدافع أنهم افتقدوا للآليات التي كانت تساعدهم على العيش الكريم، أي افتقدوا إلى وظائفهم ومشاريعهم وممتلكاتهم الشخصية أو دخلهم الفردي الذي كان يعيلهم على عيش الحياة .. وهنا يمكن أن نحلل

ذهنية (المتحول اجرامياً) الذي قد يختلف من (مجرم متحول) ينتمي إلى بيئة محددة عن آخر (متحول) ينتمي إلى بيئة أخرى، لذلك سوف نأخذ الشخصية السودانية والتحولات التي طرأت عليها ما بعد الحرب كنموذج:

فالمعروف والبديهي في العوامل النفسية لارتكاب الجرائم هو: ضعف العامل المادي، والمستوى العلمي، والمنطقة السكنية، وأوقات الفراغ، والبطالة، والفقر، وضعف وسائل الضبط .. وهذه جميعها عوامل تنطبق على البيئة التي يعيش بينها الإنسان السوداني، لتخلق منه إنسان مجرم، إضافة إلى أن بنية المجتمع السوداني على أنه (مجتمع عرفي) هو ما يشجع المجرمين على ممارسة جرائهم، لكون معارفهم وأهلهم يتسترون على جرائهم، أو القانون لا يكون أعلى من سلطتهم التي تتمثل في معارفهم وأهلهم كذلك الذين يعملون في الأجهزة الأمنية في الدولة، فيقدمون لهم العفو على جرائهم المرتكبة .. أيضاً البنية الاجتماعية للقبيلة قد تلعب دوراً تعارضياً مع قانون الدولة، وهو الأمر الذي يخلق مجرمين من دافع أنهم يعاقبون بقوانين هشة تضعها القبيلة، أو لا يعاقبون مطلقاً بالنسبة للقبائل التي تمتلك الأسلحة ويرتكب أحد المنسوبين لها جرائم بحق أفراد ينتمون لقبائل أخرى .. فالقبيلة أحياناً قد تشكل دولة موازية أو دولة داخل دولة، لها أعرافها وقوانينها.

أيضاً من العوامل المهمة التي تشجع على صناعة المجرمين، هو عامل الفقر الذي يعيشه أفراد الأمن فيدفعهم لقبول الرشاوي في جرائم المخالفات التي تصنف من الجرائم الصغرى، وجرائم (الجنحة) وهي جرائم أصغر من جرائم (الجناية) التي تصل عقوبتها بالإعدام والأعمال الشاقة والسجن المؤبد، وجرائم (الجنحة) مثل جريمة السرقة البسيطة، والاعتداء البسيط، والسلوك غير المنضبط (كالإزعاج أو المشاجرات) ، والتخريب البسيط لممتلكات الغير والقيادة المتهورة..

ففي فترة الحرب السودانية، نشطة تجارة (السوق الأسود) في المحروقات (البنزين/ الجاز) وهو الأمر الذي ساعد فيه أفراد من الأمن بمختلف وظائفهم في الأجهزة الأمنية المتنوعة والمتعددة بمساعدة المواطنين الذين ينشطون في هذه التجارة، بقبول رشاوي منهم أو بعلاقات تربطهم في تصريفهم من أمام الارتكازات الأمنية أو شراء المحروقات لهم فوق القدر المسموح له للسيارة الواحدة من محطات الوقود التي تشرف عليها الدولة.

بل الأمر لم يقتصر على تجارة المحروقات في الأسواق السوداء، إنما وصل إلى تجارة الأدوية وبمساعدة ذات الجهات الأمنية أو بعض الأفراد الذين يعملون في الأمن الوطني.

إذن الشيء الواضح، أن الشخصية السودانية – ولا نقصد بالضرورة كل المجتمع السوداني – هي ليست شخصية (متحولة) بل بنيتها الاجتماعية هي ما فرضت في دواخلها نزعة إجرامية تتصور في الذهنية الجمعية أنها ربما تمثل أسطورة (بعض أنواع الجرائم في السودان تمثل أسطورة بطولية) رشوتك لعسكري هي امتثال لموقف بطولي، هروبك من العدالة بدفع رشاوي أو بحكم علاقة مع أحد الذين يجلسون في سلطة الدولة هو بطولة تستدعي الحكي في المجالس العامة (لا يمكن أن تكون عيب!) بل هي واحدة من أشكال الأسطرة التي تخلق شعور بالافتخار والتفوق. فأتوقع من خلال وجود (مجتمع عرفي/ قبلي) في السودان أن لا تكون هنالك دولة قانون وإلى الأبد.

فالحرب في السودان رغم تأثيرها أو إفرازاتها، إلا أنها لم تضع تحولات على الشخصية السودانية، بل أنها صورتها بشكل عاري أو كشفت ما كان يتصور بأنه (أسطوري) حينا لامست الكل من مراراتها أو أضرارها.

صراع الآخر في صورته الجماعية المؤسسية

من يحكم العالم؟:

لا أريد في هذه الدراسة أن أركز بالضرورة على التحليل أو التفكير السياسي النمطي أو الكلاسيكي، دائماً ما أفضل التفكير الفلسفي الذي يقودنا إلى جذور أو أس الصراعات؛ أي من هذا المنطلق يمكن أن نفهم أن طبيعة الصراعات السياسية أو الحروب الأهلية في العالم الثالث وأفريقيا بالتحديد، هي نتاج الطبيعة البشرية أو التركيبة السكانية المعقدة للمجتمعات الأفريقية؛ فالتعدد الإثني والثقافي والديني الممزوج بالجهل وطغيان السيادة القبلية على سيادة الدولة لتلك المجتمعات وتنوع وتعدد الموارد الطبيعية هي ما خلقت منافذ للقوة الإمبريالية في هندسة الحروب بينها؛ أي لا يمكن نكران السيطرة الغربية على العالم، وخلق من الغرب مركز للحضارة في مفهوم نتاجها الفكري؛ فامتلاك الغرب للقوة العلمية في الطبيعة والفيزياء والكيمياء والأحياء والفلك والطب وإلى آخره هي ما خلقت منه قوة اقتصادية وأمنية كبرى، هي ما مكنته بالمقابل من السيطرة على الإنسان والشعوب؛ في التحكم في جيوشه وسياداته الوطنية واقتصاديته من العالم الثالث، وتفقير وتجويع وتجهيل تلك الشعوب،

عبر آليات عديدة، من ضمنها ما يعرف بالتحالفات الدولية مثل صندوق النقد الدولي ونادي باريس والأمم المتحدة، وعبر المنظمات الدولية التي لها تأثير في السياسات الثقافية ودعم الأجندة السياسية والتجسس على سيادات تلك الدول المتخلفة، والإعلام الرقمي الذي له الأثر في هندسة الغباء أو صناعة أناس (تافهون) هم من يمثلون أسطورة تلك المجتمعات؛ فبسببهم تُعاق التحولات المدنية الديمقراطية، إضافة إلى تهجير الأدمغة العلمية والنخب السياسية والثقافية واستوعباها في المؤسسات العلمية والثقافية الغربية وجعلها خاضعة أو محاربة بالوكالة لأنظمة الحكم الغربي، وإرسال الباحثين في المجتمعات والهويات والأديان والثقافات والأنثروبولوجيا والميثلوجيا لفهم طبيعة تلك المجتمعات وخلق الصراعات بينها على أساس تناقضاتها الإثنية والثقافية والدينية؛ فالشرق الأوسط وأفريقيا بالتحديد بالتعقيدات الإثنية والثقافية والدينية والتمثل المثيولوجي للقبيلة كـ(أسطورة) لسكانها، لا يمكن أن تُحكم بأنظمة الحكم الغربي كالشيوعية والاشتراكية والليبرالية والعلمانية وإلى آخره، ولعل هذا ما يعبر عن فشل مفكرين العالم الثالث بالتفكير بـ(أفريقية) أو (عربية) أو (آسيوية) لإنتاج أنظمة حكم تتماشى مع الطبيعة الاجتماعية لمجتمعات العالم الثالث. بل أن الغرب صدر للشعوب المتأخرة أو المتخلفة فكرياً وعلمياً ومعرفياً النظرة الدونية لذاتهم ومفهوم المركزية

والأسطورة الغربية (كل ما هو غربي هو أسطوري) فهناك مقولة في ذات السياق إلى الفيلسوف الألماني (هيغل) – ليست مؤكد من صحة نسبها إلى (هيغل) – تقول: أن الإنسان الأفريقي لا يمكن أن يبني معرفة!

ففي دراسة إلى دكتور الطيب بن المختار الوزاني عنونها بـ(ظاهرة الهيمنة الغربية على العالم: جذورها ومرتكزاتها) وفي عنونة فرعية لها (المرتكز التنظيمي في المجال الاجتماعي والتدبير السياسي) يقول: في المجال الاجتماعي اكتسب الغرب قوة تنظيمية محكمة من خلال الاستناد إلى العلوم الإنسانية والتحكم في الحراك الاجتماعي من خلال مؤسسات سياسية (أحزاب، مؤسسات تشريعية وقضائية وتنفيذية) ومهنية (نقابات) ومدنية (جمعيات واتحادات..) وكلها تمارس حقوقها في التفكير والتعبير والتدبير وقد قام الغرب بتشجيع البحوث الإنسانية في المجالات النفسية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية نظريا وتطبيقياً وأفرز ثروة معرفية ما لبثت أن أحدثت ثورة اجتماعية وتغيرات مهمة على المستوى الاجتماعي هذا إذا أضفنا توفير جو الحرية الفكرية والديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان وتطبيقاتها في الحياة اليومية والتداول السلمي والسليم للسلطة السياسية.

غير أن هذه القوة ووسائلها عمل الغرب أيضاً على احتكارها لنفسه وقصرها على الإنسان الأوروبي والأمريكي دون بقية الشعوب، وظهر في الغرب التوظيف النفعي لهذه المبادئ في الترويج لها وتصديرها؛ فأصبحت العلوم الإنسانية وسائل في تعزيز مقولات المركزية الغربية والتفوق الغربي والتمييز العنصري والاضطهاد والقمع وإجراء التجارب على المعتقلين والمقهورين من الأفراد والشعوب. كما تسويق الأفكار والنظريات النفسية والاجتماعية التي تدعو إلى الانحلال الخلقي وثقافة الجنس والمادة والاستهلاك؛ الأمر الذي زاد في أزمات دول العالم الثالث وأبعد أبناءها عن جادة العلم والمعرفة القيمية بتأهيل المجتمعات نحو الريادة.

أما في ذات السياق حول الهيمنة الغربية أصاغ الفيلسوف والكاتب الفرنسي (روجيه غارودي) مصطلح (التكلفة الصفرية) الذي يعني أنّ ساسة الغرب لا يخسرون شيئاً في حروبهم بل يكسبون؛ وقد يُنشئ بعضهم الحروب بين طرفين؛ ويتولى دعمها آخرون، ثم يُعلن الغرب الانتصار بأنفسهم وقت ما يشاؤون عند التدخل النهائي!

خلاف ذلك، هناك ما يسمى بـ(مجلس إدارة العالم) في بلدان وجيوش ورؤساء العالم؛ فمن الحيثية الاقتصادية هناك شركتان من أكبر شركات العالم: (بلاك

روك) و(فانغارد) هما من يتحكمان في الجزء الأكبر من اقتصاد وأصول هذا العالم؛ فهناك (٣٤٥٣) علامة تجارية في مجال المشروبات والأغذية تقع تحت طاولة إدارتهم؛ أي كل سلعة بداخل أقرب سوبر ماركت لمنزلك هي خاضعة لتلك الشركات. فشركة (بلاك روك) تتربع على عرش أكبر شركات إدارة الأصول في العالم، بحجم ١٠ تريليون دولار، وهذا ما يعادل ٣ أضعاف الناتج المحلي الإجمالي لدولة الهند. أما (فانغارد) تأتي في المرتبة الثانية بحجم أصول تتخطى الـ٨ تريليون دولار. وشركة (فيديلتي) الأمريكية في المرتبة الثالثة بأصول ٤.٢٥ تريليون دولار.

فإدارة العالم الحقيقي تخضع لشركات ومؤسسات عملاقة وليست للجيوش كما يظن البعض؛ فإن شركات (بلاك روك) و(فانغارد) لديهم أصول في أغلب المؤسسات التكنولوجية والمالية في العالم؛ فعلى سبيل المثال: فهما لهم الحصة الأكبر في كل من شركة (ميتا فيسبوك) و(انستغرام) و(واتساب) و(آبل) و(مايكروسفت) و(أمازون) و(كوكولا) و(المراعي)..الخ فهذه الشركات تمتلك الأصول والاستثمارات في كل شيء؛ فهي من كبار المساهمين في قطاعات الطيران والنفط وشركات التعدين وصناعة الصلب والطاقة المتجددة والتبغ والتجارة الإلكترونية وصناعة السيارات والسلاح وكبار شركات التأمين، كما أنها تسيطر على سوق الأدوية في الولايات المتحدة الأمريكية.

كرة القدم كمسرح للجرائم الاقتصادية الكبرى والترويج لأسطورة القوميات

علامة استفهام؟:

أولاً يجب أن نفهم أن لاعبين كرة القدم هم آليات للجرائم الاقتصادية الكبرى ولأسطرة القوميات والترويج للشركات الكبرى. ثانياً السؤال الموضوعي الأهم هو: لماذا يتم منح لاعبين كرة القدم مبالغ خيالية، بينما العلماء والمفكرين والأدباء الذين يظل دورهم في الحياة أهم من دور اللاعبين أو الرياضة عموماً التي لا تتعدى مجرد أنها أداة (للإثارة والمتعة)!؟ العلماء والمفكرين والأدباء يعملون على منح الوعي والاستنارة وصناعة الأدوية والأجهزة الطبية والسيارات والطائرات والقطارات والأجهزة الإلكترونية الذكية والأسلحة والملاعب الرياضية نفسها التي تحتاج لمفكرين هندسيين وعلماء زراعة وعلماء فلك؛ حتى إذا شاهدنا الفلم الوثائقي لتشييد استاد (الثمامة) إحدى ملاعب مونديال قطر ٢٠٢٢م حول تدخل هذا العلم مع علم الزراعة في بنية العشب، واللاعبين يركضون خلف كرة عبثية (من حيث أولويات الحياة)!؟

الواضح أن مع تقادم الزمن تخطت الرياضة أن تكون (للرفاهية) وحدها؛ بل اختلطت فيها السياسة والدين وغسيل الأموال والثقافات والهويات (أصبحت بوابة لتمرير الأيديولوجيات) وآلية للإعلان والتسويق.. الخ.

الدول أصبحت تستفيد من الشعبية الكبيرة لكرة القدم خصوصاً، لتمرر عبر تنظيمها للبطولات الكبرى أيديولوجياتها والاستفادة اقتصادياً من المدخلات السياحية والترويج لمعالمها السياحية والحضارية؛ ففي فترة استقبال الحدث الرياضي تنشط (الحركة الاقتصادية) أو تنشط كل الأماكن التجارية والسياحية من فنادق إلى مطاعم وكافيهات ومتاحف وشركات طيران وباصات وقطارات..الخ ، كذلك الشركات الكبرى تستفيد من الإعلانات (الترويج لمنتوجها) عبر قنوات التلفزيون الناقلة للحدث الرياضي التي تستفيد منها هي الأخرى وعبر الإعلانات التي تكتب على أقمصة وأحذية اللاعبين، واستغلال اللاعبين (الأكثر شهرة ووسامة بينهم) لعمل إعلانات خارج إطار اللعبة (مقابل مبالغ خرافية)!

بينما خلاف التقليل مادياً من دور العلماء والمفكرين والأدباء، هناك أكثر من ٨ مليون طفل في أفريقيا وحدها يموتون سنوياً بسبب الفقر والجوع والأمراض الوبائية، والملايين من الناس يعيشون في ظل فقر مدقع وفي ظل ظروف

مأساوية! هناك حتى الآلاف من الناس الذين يهزمهم الحصول على ثمن تذكرة لمشاهدة كرة القدم نفسها على التلفاز – شخصياً أنا واحد من هؤلاء – أشاهد كأس العالم لأربعة مرات متتالية على قنوات أفريقية (تسرق) مباريات كأس العالم وتقدمها بلغات لا أفهمها ولا تناسب ذوقي إذا فهمت بعضها!

فأعتقد مشاهدة كأس العالم يجب أن يدون في قانون الأمم المتحدة؛ أنه (حق من حقوق الإنسان) الذي يحق أن يشاهده أي شخص في العالم (مجاناً) ، فكل هذه الأموال الخرافية يجب أن يصرف منها من الاتحاد الدولي لكرة القدم لدعم مشاهدة هذا الحدث الرياضي العالمي دون (احتكار) أو (تشفير).

هذا إذا كان العالم يبحث عن توطين عدالة ممكنة، لكن لا أظن ذلك؛ الأنانية والوحشية والقتال والجهوية والعنصرية واصطناع الأزمات المتعمدة هي محور الصفة البشرية والواقعية التي لا يمكن أن تتغير في ظل وجود المستفيدين منها بأنانية مفرطة.

في الحقيقة هناك ملايين من الأموال للرأسماليين والسياسيين (اللصوص) ولاعبين كرة القدم والرياضيين عموماً والمافيات والمستثمرين المتلاعبين الذين يغسلون أموالهم في الرياضة، موزعة على البنوك دون حركة لها تذكر ولسنوات طويلة جداً، بينما العالم يومياً يقتله الفقر والجوع والأمراض الوبائية المصطنعة.

أما فيما يدور خلف الكواليس من فساد وعلى هامش مونديال قطر ٢٠٢٢م قد نقول أن نسبة إلى (أسطورة) ميسي الاستثنائية التي لا شك ولا خلاف حولها، كانت ترغب قطر بشدة أن يفوز ميسي بكأس العالم؛ لأن فوزه يمنح لقطر نسخة مونديالية استثنائية؛ فتاريخ ميسي سوف يرتبط كثيراً وإلى الأبد بنسخة قطر ٢٠٢٢م. كما بعض الشركات الاستثمارية الإعلامية والاتحاد الدولي لكرة القدم (FIFA) الذي وصفه رئيس الاتحاد الإنجليزي السابق ديفيد تريسمان (بالمافيا العائلية) يرغبون كذلك أن يفوز ميسي بكأس العالم؛ ذلك لأمور مادية يدركها الرياضيين الذين يفهمون كيف تدار كرة القدم خلف الكواليس وتفهمها النخبة الإدارية الرياضية جيداً!؟ ولمحبة خاصة من أعضاء هذا الاتحاد لميسي .. إذا رجعنا إلى ذاكرة رئيس الاتحاد السابق بلاتر (من أكثر الرؤساء فساداً؛ فقد تم إيقافه سابقاً عام ٢٠١٥م لفترة ٦ سنوات؛ نتيجة تورطه في دفع رشاوي بلغت قيمتها مليون و٣٥ يورو من الاتحاد الأوروبي لكرة القدم الذي كان يدعمه لتولي رئاسة الاتحاد الدولي في انتخابات الفيفا ٢٠١١م التي فاز بها بالفعل، هي ما دفعها لميشيل بلاتيني الذي اعترف بنفسه أنه تلقى رشاوي من بلاتر بعد تحقيق أجرته السلطات السويسرية)! أن من طرائفه التي تعكس خلفيته الفاسدة والانحيازية، أنه في إحدى اللقاءات الإعلامية أظهر محبته

الخاصة لميسي ووصف كريستيانو بالرجل (العسكري) وهو رمزياً ما يعني بلغتنا المحلية "زول شماسي ساي"! وإلى الذاكرة القريبة من هذا المونديال، نكتشف في آخر مبارة للأرجنتين مع كرواتيا أن ركلة الجزاء المحتسبة للأرجنتين (ليست صحيحة مطلقاً) أو من (خيال الحكم) فالحكم كان من الممكن أن يرجع (للفار) ولم يفعل، فمع هدف ((الحظ)) الثاني للأرجنتين المبارة (ماتت) تماماً أو سيناريو المبارة عند الكروات تغير تكتيكاً ونفسياً! كما أن منتخب الأرجنتين أكثر منتخب تحصل على ركلات جزاء في البطولة بعدد ٤ ركلات جزاء (مشكوك حول بعضها) فهذا أسوأ مونديال من حيث احتساب ركلات الجزاء المحتسبة وغير المحتسبة!

إضافة إلى أن ناصر الخليفي رئيس نادي باريس جيرمان (الذي يلعب له ميسي) تربطه علاقة مع العائلة المالكة، ومع تنظيم البطولة في قطر، يُرجح أن هناك (طبخة تم الإعداد لها خلف الكواليس) لينال ميسي بطولة كأس العالم. مع العلم أن ناصر الخليفي يُتهم ناديه بالفساد في مخالفته (للوائح اليويفا للنزاهة المالية) التي تحظر على النوادي منذ عام ٢٠١٣م إنفاق ما يتجاوز دخلها المُحصل من نشاطات ذات صلة بالرياضة، حينا تعاقد نادي باريس سان جيرمان مع الهيئة العامة للسياحة القطرية بأكثر من مليار يورو!

أيضاً على الجانب الفرنسي، هناك تدخلات سياسية محتملة (طرحت خلف الكواليس) في مبارة المغرب وفرنسا، فحضور الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون لمشاهدة المبارة وملاقته لرئيس الفيفا جياني إنفانتينو (أمر يدعو للشكوك) وهو ما يدعمه ركلة الجزاء الصحيحة ١٠٠٪ بحسب عدة خبراء تحكيم ومحللين رياضيين (أوروبيون) التي ارتكبت مع المهاجم المغربي بوفال، وما تدعمه صحيفة ماركا الإسبانية التي أشارت لصحة ركلة الجزاء، وعدة صحف ووسائل إعلام أخرى! ففوز المغرب في هذه المبارة تحديداً – وسط الثورة المغربية الكروية في توالي إسقاطها للمركزية الأوروبية كروياً – كان سوف يقود لإنتفاضة سياسية بين الإعلام الرقمي في الشمال الإفريقي خصوصاً، تستدعي فيه ذاكرة فرنسا الإستعمارية والتأثير الثقافي الفرنسي في المغرب والقارة، وتحجيم القوميات، إن كانت كرة القدم أكبر مروج للقوميات، كما وصفها بعض المفكرين.

أما إذا أردنا دعم تلك الاستنتاجات لا يمكن تجاوز مبارة ((العار)) تشيلسي **VS** برشلونة وكيف كان موقف الاتحاد الدولي من تلك المبارة! فبحسب التقارير الإعلامية يقال أن في دوري أبطال ٢٠٠٩م تم التلاعب بعدد ١٢ مبارة نتيجة (رهانات) من ضمنها مبارة تشيلسي **VS** برشلونة وأن الاتحاد الأوروبي لكرة القدم لم يكن يرغب في ذلك الوقت أن يحمل فريقين من إنجلترا (هما

تشيلسي ومانشستر يونايتد) البطولة في سنوات متتالية؛ بعد أن حمل البطولة مانشستر يونايتد عام ٢٠٠٨ وتشيلسي ٢٠٠٩ كان على بعد خطوة من التأهل للنهائي في حال تغلبه على برشلونة في تلك المبارة من النصف النهائي، ثم مقابلة مانشستر يونايتد الذي تأهل للنهائي سلفاً.

أضف إلى ذلك أن طوال تاريخ كأس العالم لم يتم منح أي حكم أفريقي إدارة مبارة في نصف النهائي أو النهائي! باستثناء الحكم المغربي (سعيد بلقولة) الذي أدار نهائي كأس العالم ١٩٩٨م بفرنسا، وهذا اعتراف صريح من الفيفا بأن (هناك فساد رياضي يحدث في اتحادات كرة القدم وفي الاتحاد الأفريقي خصوصاً)! فكرة القدم لعبة غذرة مثلها مثل السياسة، تدار فيها خلف الكواليس الرشاوي والاحتيالات والرهانات وغسيل الأموال والفساد الرياضي بمختلف أشكاله..الخ فمونديال قطر نفسه هو مشكوك في أحقية تنظيمه (فهناك أرجحية لوجود رشاوي قُدمت تحت الطاولة) ؛

أي رئيس الاتحاد القطري والآسيوي (محمد بن دهام) هو أحد أعمدة الفساد والرشاوى، وهو من كان عراب (شراء) قطر لتنظيم كأس العالم؛ ذلك بعد أن دفعت الملايين لكل من يملك تأثيراً وله دور في التصويت. وكان لها ما أرادت. والآن هنالك أيضاً فضيحة مدوية في البرلمان الأوروبي والمتهم الأول فيها هي

قطر؛ بدفعها رشاوى كاش وجدت في بيت نائبة البرلمان (لتحسين سمعة قطر). وكذلك ما قام به نائب الرئيس السابق للفيفا جاك وارنر من عملية فساد في مونديال ١٩٩٨م بشراء حقوق البث عبر شركة مكسيكية خاصة به، وهو نفسه الذي دعم عملية فساد فوز بلاتر في انتخابات ٢٠١١م الذي هو الآخر سهل له مهمة شراء حقوق البث في مونديال ١٩٩٨م، وما قام به رئيس نادي يوفنتوس الإيطالي أندريا انيللي من بيع تذاكر (للمافيا) الذي على أثر ذلك تم تغريمه ٢٠ ألف يورو مع تغريم النادي ٣٠٠ ألف يورو وإيقافه مع ثلاثة مسؤولين آخرين. أضف إلى ذلك أن نادي يوفنتوس في العام ٢٠٠٦ تم إنزاله للدرجة الثانية؛ نتيجة تورطه في التلاعب بالنتائج في الدوري الإيطالي مع عدة أندية أخرى من ضمنها نادي إي سي ميلان وفيورنتينا ولاتسيو!.

وغيرها من عمليات الفساد التي تم الكشف عنها والتي لم يتم الكشف عنها بعد.

إبراهيم أحمد الإعيسر

القاهرة – ٢٠٢٤م

هوامش:-

– سوسيولجيا الحَرب والعنف – سينيشا مالشيفيتش – ترجمة طارق عثمان

– الصراع الدولي بين القوة والمنفعة

د. فاطمة بكر السيد – مدرس الفلسفة – بكلية التربية – جامعة عين شمس

– الأنثروبولوجيا في مشاكل العالم الحديث – كلود ليفي ستروس

– الحيوان الاجتماعي – إليوت أرونسون

– العقل والمادة – إرفين شرودنجر

– **The Social Construction of Reality**

كتاب من قبل بيتر بيرغر وتوماس لوكمان

– تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي – ميشيل فوكو

– إفريقيا المستهدفة – الاستعمار الايديولوجي الجدد في القرن الحادي والعشرين (المساعدات الغربية في خدمة الأجندة النسوية) أوبيانوجو إيكيوتشا

– تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – إيمانويل كانْت

– نيكولو باغانيني .. فارس الموسـيقى وأسطورة الكمان – أثيل حمدان – موقع البيان

– العقل والوجود – يوسف كرم

– تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب – د. جورج قرم

الفهرس

مقدمة..... ٦

مدخل إلى التعريف بالفلسفة الكوميدية وأسس الصراعات البشرية ٢٢

الخيال كأداة بيولوجية مركزية لخلقية اللذة (الرفاهية) ٣٠

صراع الذات والآخر في صورته الفردية والجماعية والحياتية (أن تكون الحياة آخر).....٤٤

صراع الآخر في صورته الجماعية المؤسسية ٧٥

كرة القدم كمسرح للجرائم الاقتصادية الكبرى والترويج لأسطورة القوميات.....٨٠